الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة



دراسات عن المقريزى

مجموعة أبحاث

اشترك فى إعدادها:

الدكتور محمد مصطفى زيادة
الدكتور جمال الدين الشيال
الأستاذ محمد عبد الله عنان
الأستاذ حسن عبد الوهاب
الدكتور إبراهيم أحمد رزقانه
الدكتور محمد محمود الصياد

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
١٩٧١

دراسات عن المقريزي

المكتبة العربية

تصدرها

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

وزارة الثقافة

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة



دراسات عن المقريزى

مجموعة أبحاث

اشترك فى إعدادها:

الدكتور محمد مصطفى زيادة
الدكتور جمال الدين الشيال
الأستاذ محمد عبد الله عنان
الأستاذ حسن عبد الوهاب
الدكتور إبراهيم أحمد رزقانه
الدكتور محمد محمود الصياد

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَـدّمَة

تنهض الجمعية المصرية للدراسات التاريخية برسالة ضخمة فى نهضتنا المعاصرة ، فهى حريصة كل الحرص على الاسهام فى حركة احياء التراث العربى القديم ، وتوجيه أنظار المحدثين من الأجيال الصاعدة الى ما فى هذا التراث من قيم فكرية وخلقية واضحة ، وبذلك لا يظل التاريخ أداة ميتة ترتبط بالماضى فحسب ، وانما يصبح علما بناء « يخدم الحاضر والمستقبل ، ويربط بين القديم والجديد . »

ولما كانت رسالة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية تتفق فى هذا الجانب مع رسالة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، فان التعاون بين هاتين الهيئتين العلميتين صار وثيقا من أجل تحقيق أهداف كبرى ، مشتركة . وظهر هذا التعاون فى عديد من المشروعات العلمية الناجحة ، منها هذا المشروع الخاص باحياء ذكرى المؤرخين العرب على نحو يصور حياتهم وعصورهم وأسلوب كل منهم وطريقته فى علاج التاريخ ، فضلا عن القاء مزيد من الضوء على مؤلفاتهم وأهميتها .

واليوم نقدم لأبناء الأمة العربية بوجه عام والمشتغلين بالتراث العربى والدراسات التاريخية بوجه خاص ، هذا الكتاب الذى هو فى

حقيقة أمره ثمرة من ثمرات هذا التعاون المشترك بين المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية من ناحية ، والجمعية المصرية للدراسات التاريخية من ناحية أخرى .

وموضوع هذا الكتاب أحمد بن على المقريزى ، شيخ المؤرخين العرب فى القرن التاسع الهجرى الخامس عشر للميلاد ، وصاحب العقلية الفذة والنظرة الأمينة النفاذة التى ربطت بين الجانبين السياسى والحربى لعلم التاريخ من ناحية ، وبين جوانبه الاجتماعية والاقتصادية والطبيعية من ناحية أخرى ، مما جعل كتابته تنفرد بمسحة فريدة من اتساع الأفق والعمق الفكرى .

ويشتمل هذا الكتاب على ثمانية أبحاث أعدها نخبة من الأساتذة المتخصصين ، وألقيت سنة ١٩٦٦ فى حلقة عن المقريزى نظمتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالتعاون مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . ولئن كان نشر هذه الأبحاث قد تأخر لأسباب خارجة عن ارادتنا ، فاننا نأسف لهذا التأخير ، ونسأل الله أن يوفقنا دائما الى خدمة تراثنا العربى المجيد .

شوال ١٣٩٠   أحمد عزت عبد الكريم

ديسمبر ١٩٧٠   رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

أحمد بن على المقريزى

للأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة

الجديرون بالتقدير والمحبة من المواطنين فى أى عصر من العصور هم الذين يعطون لوطنهم من الخدمة أكثر مما يأخذون منه ، ويقدمون له من الخير أكثر مما يصل الى أيديهم من المنفعة لأنفسهم . ومن أولئك فى دائرة المؤرخين فى مصر أحمد بن على المقريزى المولود سنة ١٣٦٤م (٧٦٦هـ) ، بحارة برجوان بقسم الجمالية بمحافظة القاهرة الحالية ، والمتوفى بها سنة ١٤٤٢م (٨٤٥هـ) ، وهو فى سن الثمانين بالحساب الهجرى ، وها نحن باسم المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، وفى قاعة المحاضرات بدار الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، نحتفل لأول مرة بذكرى مرور أكثر من ستمائة سنة على ميلاد هذا المؤرخ العظيم ، سواء بالحساب الميلادى أو الهجرى .

ومنبع استحقاق أحمد بن على المقريزى للاحتفال والتكريم ، بيننا نحن المصريين ، مؤلفاته الخالدة الفائقة فى مختلف العلوم الاجتماعية فى عصره ، وبهذه المؤلفات ينال المقريزى أعلى المؤهلات والدرجات التى تستخدمها الهيئات الأكاديمية الحديثة ، فى تصنيف طبقات المؤرخين الباحثين ، فهو أستاذ مبتكر مثابر صابر أمين فى كل أعماله العلمية وهو بجلوسه الفعلى والمجازى فى كرسيه الأستاذى العالى ، بين أجيال تلاميذه ، ومريديه وقارئيه حتى العصر الحاضر ، فضلا عن أجيال مشايخه وسابقيه المباشرين وغير المباشرين ، جدير كذلك بأن يسمى

عميد المؤرخين السالفين جميعا ، من ابن عبد الحكم الى الجبرتى . وهذه الجدارة صادرة من ثلاثة اعتبارات ، أولها أخلاقه الشخصية ، وما فيها من ايمان يحب الوطن ، وايمان بالاستقلال فى الرأى ، وايمان بضرورة الاستمرار فى المناداة باصلاح الأمة كلها ، وأحوالها العامة ، لا أحوال طبقة معينة دون غيرها من الطبقات ، وثانيها صفات مؤلفاته نفسها ، من حيث الدقة فى ايراد الحقائق ، والتخصص المتنوع وحسن التوزيع ، والنسبية ، والمنظورية ، وثالثها ما أودع المقريزى فى الأجزاء غير المعاصرة من مؤلفاته التاريخية من اقتباسات طويلة وقصيرة ، من أمهات ووثائق لا تزال أصولها منفقودة .

وعندما أخذت فى الحبو على ركبتى نحـو الأمهات والمصـادر العربية الكبرى فى تاريخ مصر العصور الوسطى ، وذلك منذ أربعين سنة ، لم ألبث وقتذاك أن وجدتنى رافعا رأسى لأنظر فى مخيلتى الى رجل بيده اليمنى كتاب ، وصورته الخيالية لا تزال تذكرنى حتى العصر الحاضر بصورة الملاك الباسم فى الفن الأوربى فى العصور الوسطى ، ذلك أحمد بن على المقريزى ، وبيمينه كتابه السلوك فى معرفة دول الملوك ، وهو أول ما قرأت وأفدت من مؤلفاته التاريخية وغير التاريخية الكثيرة .

ثم استقام لى الشرف والفخر أن أكون أول مجتهد فى اخراج هذا الكتاب الكبير ، من ظلمات المخطوطات القديمة الى نور المطبوعات الحديثة ، بفضل اعانة مالية كريمة من وزارة المعارف العمومية وقتذاك الى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مع العلم بأن أجزاء معينة من هذا الكتاب ظهرت قبل ذلك مترجمة الى الفرنسية ، على يد المستشرقين الفرنسيين اتين كاترمير واميل بلوشيه ، سنتى ١٨٣٧ ، ١٩٠٨ . وكانت الحملة الفرنسية النابليونية على مصر فى أوائل القرن التاسع عشر ، واستيلاء علمائها على كثير من المخطوطات العربية سببا من الأسباب التى ساعدت على سبق هذين المستشرقين وغيرهما من العلماء الأوربيين

الى نشر كثير من المصادر العربية مترجمة ، أو فى لغتها الأصلية .

ثم كان من حسـن الحظ أن عثرت فى مكتبـة فاتح كتبخانسى باستنبول على الجزء الأول من كتاب السلوك بخط المقريزى نفسه ، كما عثرت بدار الكتب المصرية على مخطوطة تحتوى صفحة العنوان منها على توقيع المقريزى بيده ، بما يفيد قراءته تلك المخطوطة والافادة منها ، مع الدعاء لمؤلفها بالرحمة والغفران ، على عادة العصور السابقة على عصر الطباعة والكتب المطبوعـة . وليس العثور على مخطوطة مكتوبة بخط مؤلفها ، أو العثور على توقيع مؤلف فى غلاف مخطوطة قديمة قرأها شيئا نادرا ، لكنه شيء حسن استعنت به على تصـوير بعض صفات المقريزى لنفسى ، على قدر طاقتى فى قراءة صفات الناس من خطوطهم ، كما استعنت به على فهم ترتيب المقريزى وطريقته فى تأليف كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك بالذات ، فضلا عن تقدير مدى اختياره واطلاعه واستخدامه كتب السالفين فى بناء الأجزاء الافتتاحية من ذلك الكتاب .

ولأول نظرة يرى القارىء لكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، فى صورته المطبوعة المتداولة ، أن المقريزى أودع فى صفحة العنوان من هذا الكتاب شيئا من صفاته الشخصية ، حيث يقول بعد كتابة اسم الكتاب واسمه هو ما يأتى ـــ وكأنما يخاطب نفسه ـــ : لا أحوجك الله الى اقتضاء ثمن معروف أسديته ، ولا ألجأك الى قبض عوض عن جميل أوليته ، ولا جعل يدك السفلى لمن كانت عليه هى العليا ، وأعاذك من عز مفقود ، وعيش مجهود ، وأحياك ما كانت الحياة أجمل لك ، وتوفاك اذا كانت الوفاة أصلح لك ، بعد عمر مديد ، وسمو بعيد ، وختم بالحسنى عملك ، وبلغك فى الأولى أملك ، وسدد فيها مضطربك ، وأحسن فى الأخرى منقلبك ، انه سميع قريب ، جواد مجيب .

ولا يكاد القارىء ينتهى من هذه العبارة الوعظية حتى ينتقل الى عبارة تاريخية هامة فى أصل الأكراد ونسبهم ، تمهيدا للدخول فى تاريخ

الدولة الأيوبية فى مصر والشام ، وهى موضوع الجزء الأول من كتاب السلوك . ثم لا يكاد القارىء ينتهى من هذه العبارة الثانية حتى يجد نفسه متنقلا ، فى غير جهد أوعناء عقلى ، بين عناوين تاريخية متعاقبة ، ذوات فصول قصيرة ، مجموعة فى مهارة علمية واضحة من مصادر عربية أصلية مشهورة ، وكلها فصول مؤدية فى سرعة محمودة لتاريخ الأيوبية ، وكل ذلك فى صفحات لا تعدو أربعين صفحة مطبوعة ، تبدأ بذكر ما كان عليه الكافة قبل قيام ملة الاسلام وتنتهى بانتهاء الدولة السلجوقية ، وكان باستطاعة المقريزى أن يقف ليستطرد فى أى موضوع من المواضيع التاريخية الواقعة بين هذه البداية والنهاية ، ولكن الاستطراد لم يكن من صفاته فى هذا الكتاب أو عنده من كتبه ، ثم أنه لم يكن بحاجة الى الوقوف للاستطراد ، لأنه سبق أن رسم لنفسه خطة مرتبة استهدف بها أن يكتب تاريخ كل دولة من الدول الاسلامية فى مصر حتى عصره فى تأليف مستقل ، وبدأ هذا الترتيب التاريخى بكتاب البيان والاعراب فيمن دخل مصر من الأعراب ، ثم أعقبه بكتاب عقد جواهر الأسفاط فى أخبار مدينة الفسطاط ، وهو تاريخ لمصر منذ الفتح العربى الى قيام الدولة الفاطمية بها ، ثم تلا ذلك بكتاب فى الدولة الفاطمية سماه المقريزى اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا ، ثم كتب بعد ذلك كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك .

وسار المقريزى فى هذا الكتاب ، بعد الفصول الافتتاحية التقديمية التمهيدية ، على نظام الحوليات الشاملة لعهد كل سلطان من السلاطين. وذلك بأن دون حوادث كل عام تدوينا مستقلا ، وتحت عنوان هو اسم ذلك العام ، بخط كبير ومداد غير مداد المتن ، ثم ختم هذه الحوادث بذكر الوفيات الواقعة فى ذلك العام ، مع الترجمة لأصحابها فى شىء من الاختصار العامد . ثم انتقل الى العام التالى فجعل له عنوانا جديدا ، وسجل حوادثه على ذلك النمط التقليدى الرتيب . وهكذا دون أن يؤلف من كتابه موضوعا متصلا ، أو أن يربط بين سنة وأخرى ،

ما عدا انه افتتح السنة أحيانا بذكر الوظائف الكبرى ومن عليها ، وهذا فى الغالب اذا جاءت فاتحة السنة موافقة لقيام سلطان جديد ، وحدوث تغيير وتبديل وتعديل بين موظفى الدولة والبلاط والسلطانى . واعتاد المقريزى كذلك أن يكتب اسم السلطان الجـديد بخط كبير ومداد مخالف ، غير أنه لم يجعل من ذلك وقفة يلخص فيها أو يفلسف ، بل اكتفى بعبارات حاذرة فى أصل السلطان وماضيه ، ثم انتقل الى ذكر الحوادث والأسباب حسب ترتيبها الزمنى على قدر الامكان ، وهكذا الى أن صار الكتاب كلما قرب المؤلف من عصره سجلا يوميا طويلا ضافيا بأخبار ما يقع بمصر وجاراتها من الحوادث الكبرى والصغرى . ويتخلل هذا السجل الطويل شىء من أسعار المحاصيل وأحوالها ، أو فيضان النيل ، أو هبوب ريح سوداء ، أو تفصيلات جدل أدبى ، أو أدوار محنة فقهية ، أو تعديل فى نظم الحكم والجيش والدواوين ، أو وصف مسجد أنشأه سلطان أو أمير أو نص رسالة أرسلها ملك من ملوك البلاد المجاورة ، وجواب السلطان عليها ، وذلك فضـلا عن الوفيـات والتراجم التى تطـول أو تقصر بحسب مقاييس المقريزى ومزاجه ، أو بحسب القيمة السـياسية أو الاجتمـاعية أو العلمية للمترجم له .

ومن حسن الحظ مرة أخرى أن المقريزى عاش حتى بلغ الثمانين من العمر ، وانه عكف على الكتابة والاضافة الى كتابه السلوك حتى آخر سنة من حياته العامرة . ولذا جاء هذا الكتاب فى أربعة أجزاء ضخمة ، الأول والثانى منها طبوعان ، والثالث والرابع مخطوطان حتى الآن . وعندى من هذين الجزئين المخطوطين نسخة مكتوبة بقلم نسخى أنيق فاخر ، لخزانة الأمير يشبك بن مهدى الداوادار ، صاحب القبة الفداوية بالعباسية الحالية ، وتاريخ هذه النسخة سنة ٨٨٠ هـ ، أى بعد خمس وأربعين سنة فقط من وفاة المقريزى ، ومرجع أناقة

قلمها النسخي الفاخر أن الناسخ المجهول كان سجينا من مساجين العصر المملوكي ، وأراد أن يجعل من خطه الجميل شفيعا يضمن له الخروج من السجن ، كما جاء في قوله في حرد الخاتمة .

هذا قليل من كثير بشأن كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، لأحمد ابن على المقريزى ، والفضل فى هذه المعلومات يرجع الى قيامى على نشر أجزاء هذا الكتاب الكبير منذ سنة ١٩٣٠ م .

أما كتاب المقفى الكبير ، وهو كذلك فى أربعة أجزاء ضخمة ، فلا يزال سابحا فى ظلمات المخطوطات التى تنوء بها مكتبات الشرق والغرب ، وكله مخطوط لم تمتد اليه أية جهود تحقيقية جزئية أو كلية حتى الآن لنشره ، ما عدا صفحتين اثنتين منه لشخصيتين مصريتين قديمتين ، قام بنشرهما حديثا الأستاذان مصطفى مسعد وخليل عساكر فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . ولذا ليس لدى ما أقوله فى هذا الكتاب سوى قليل من قليل ، وملخص ذلك القليل أن المقريزى أراد أن يجعل من هذا الكتاب معجما قوميا كبيرا لتراجم حكام مصر ورجالها ونسائها والواردين عليها ، منذ أقدم العصورة التاريخية المعروفة له الى ما قبل عصره ، وبذا يكون المقريزى أول المفكرين فى كتابة معجم قومى للأعلام المصرية ، وهو ما نعمل نحن الآن فى ارساء قواعده وترتيب خطواته الأولى ، وفاتحة هذه الخطوات اللازمة للسير فى نشر كتابه المقفى تقرير معروض على الجهات الرسمية المختصة للحصول على صور ميكروفيلمية من مختلف النسخ المقطوع بوجودها من هذا الكتاب الكبير فى مكتبات الشرق والغرب ، لنشره فى صورة نهائية محققة تجعله جديرا بأن يكون القاعدة والمادة لبناء المعجم القومى الكبير .

١٩٦٦/٤/٢٧ **محمد مصطفى زيادة**

تاريخ حياة المقريزي

للأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة

أحمد بن على المقريزى مولود سنة ١٣٦٤ ميلادية بحارة برجوان بقسم الجمالية بمحافظة القاهرة الحالية ، فى أسرة معروفة أجيالها السابقة بالاشتغال بالعلم بدمشق وبعلبك والقاهرة ، أى أنه شهد حوادث عصره من زاوية أبناء الفئة الفكرية من الطبقة الوسطى على قول المصطلح الاجتماعى فى العصر الحاضر فهى فى مجموعها نوبات احتضار وذبول وأفول فى دولة مملوكية ذات بطولات شامخة سالفة ، وأمجاد ماضية .

ولعشرين سنة هى سنوات طفولته ومراهقته ،و شبابه ، شهد أحمد المقريزى حوادث ذلك العصر الآفل من نافذته الفكرية المصرية البعيدة عن شئون الدولة المملوكية وأمرائها الذين جعلوا من السلاطين الأطفال وأشباه الأطفال وقتذاك ، ستارا رقيقا شفافا ساذجا يعملون من ورائه لتحقيق مطامعهم .

وفى وسط تلك الحوادث الصاخبة المتقلبة ، عكف الشاب أحمد المقريزى على الدراسة التقليدية لأبناء طبقته ، وهى دراسة علوم الدين وحفظ القرآن ومعرفة النحو ، ودراسة الفقه والتفسير والحديث ، وبعض العلوم الأخرى مثل التاريخ وتقويم البلدان والأدب والحساب .

غير أن نظرة عابرة فى مؤلفاته المستقبلة تدل دلالة واضحة على مدى تأثره بمحيطه من الحوادث المضطربة ، ومثله فى ذلك مثل أستاذه

عبد الرحمن بن خلدون الذى رأى ما باسبانيا الاسلامية وشمال افريقيا من تفكك وانحلال وفساد وفتنة ، فألهمه ذلك تأليف تاريخه المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، كما ألهمه كتابة المقدمة المشهورة التى غدت منذ تأليفها أساسا لدراسة تجارب الأمم ، وعوامل التطور فى المجتمع ، وأسباب انهيار الدول .

وترددت هذه النغمة الاقتصادية الاجتماعية التاريخية فى مؤلفات أحمد المقريزى ، لأسباب : أولها : انه تتلمذ لعدة سنوات على ابن خلدون ، اذ جاء هذا المؤرخ الكبير — وهو أبو علم الاجتماع وفلسفة التاريخ — لاجئا الى القاهرة من موطنه تونس ١٣٨٢م ولم يلبث أن عقد خلال اقاماته المديدة بها حلقات دراسية كثيرة ، وصارت هذه الحلقات الدراسية نواة لمدرسة فكرية تخرج فيها المقريزى وغيره من معاصريه ، ومنهم أحمد بن حجر العسقلانى وعبد الرحمن السخاوى .

وثانيا : المحيط المملوكى الذى انغمرت فيه مصر وأهلها ، على حين عاش سلاطين المماليك وامراؤهم فى حزبية وعصبية عنصرية انتحارية بين الأتراك والجراكسة مرة ، وبين المماليك .. المتوطنين والوافدين مرة أخرى .

ثالثا : أن أسرة المقريزى جاءت الى مصر حديثا فى حياة أبيه من موطنها فى بعلبك بلبنان الحالية ، ولا بد أن امتلأت أحاديث أسرته بوصف خصائص الحياة المصرية الجديدة عليها وبمقارنتها بالحياة فى لبنان ، فتولدت فيه روح الاستطلاع والفحص منذ طفولته ومراهقته وشبابه .

والتحق المقريزى بالخدم الحكومية ، بعد أن غدا بحكم طبقته وتعليمه من أهل القلم والمعرفة ، وهى التسمية المخصصة لهذه الطبقة

تمييزا لها من طبقة أهل السيف ، وهم المماليك وحدهم ، دون غيرهم من سكان البلاد المصرية والشامية جميعا .

وأول عهد المقريزى بالخدم الحكومية كأبيه من قبله ديوان الانشاء بالقلعة ، وهو الديوان الذى يقابله فى العصر الحاضر وزارة الخارجية فعمل المقريزى الشاب سنة ١٣٨٨ موقعا — أى كاتبا — وهى وظيفة لا يبلغها قتذاك سوى أصحاب المؤهلات العالية والموهبة والمعرفة ، والتفوق فى اللغة والأدب والتاريخ

ثم تعين المقريزى نائبا من نواب الحكم — أى قاضيا — عند قاضى قضاة الشافعية بسبب ما اشتهر عنه من الحماسة للمذهب الشافعى منذ أيام دراسته ، وتحوله عن مذهب الحنفية الذى نشأ فيه ، ثم صار المقريزى أماما لجامع الحاكم الفاطمى وهى وظيفة كبيرة فى ذلك العصر.

وتولى المقريزى بعد ذلك وظيفة مدرس للحديث بالمدرسة المؤيدية ، وهى وظيفة يقابلها فى المصطلح الجامعى فى العصر الحاضر أستاذ ذو كرسى . وربما كان تعيين أحمد المقريزى فى تلك الوظيفة التعليمية العالية بتوصية خاصة من أستاذه عبد الرحمن بن خلدون لدى صديقه السلطان برقوق .

ثم انتقل المقريزى من التدريس الى الحسبة ، حين عينه السلطان برقوق سنة (١٣٩٨ م) محتسبا للقاهرة والوجه البحرى ، فانتقل بذلك من دائرة المشتغلين بالعلم والتعليم الى دائرة الادارة والاختلاط بمختلف الطبقات المجتمع . ذلك أن وظيفة المحتسب التى يقابلها فى الوقت الحاضر عدة وظائف وزارية شملت وقتذاك النظر فى الأسعار الجارية ، وأحوال النقود ، وضبط الموازين والمكاييل والمقاييس ومراقبة الآداب العامة ونظافة الشوارع وتنظيم حركة المرور ، مع الاشراف على المدارس والمدرسين والطلاب والعناية بالمساجد

والحمامات والوكالات فضلا عن مراقبة أصــحاب الصناعات الفنية من الأطباء والصيادلة والمعلمين أى المهندسين المعماريين .

ويضاف الى هذه الواجبات الكثيرة الداخلة فىاختصاص المحتسب أحوال الباعة الجائلين ، والمتعيشين والشحاذين والمتعطلين الذين كانوا خطرا دائما على الأمن .

ويتضح من ضخامة هذه الوظيفة ومسئولياتها أن أحمد بن على المقريزى الذى تعين عليها بأمر السلطان برقوق ، لا بد أنه اشتهر وقتذاك بالكفاية والدقة فى الادارة والأمانة فى تطبيق الأحكام الشرعية .

غير أنه لم يلبث أن تنحى عن هذه الوظيفة مرتين فى عامين متتاليين ، اذ ضاق بمسئولياتها التى شغلت وقته ليلا ونهارا وصرفته عن القراءة ، ونطلبت منه الجلوس فى دكة المحتسب ، بوابة المتولى الحالية ، للفصل فى شكاوى السوق والسوقة ، وتوقيع العقوبات على المخالفين واصدار الأوامر الى العرفاء والأعوان والنقباء ، مع العلم بأن وظيفة محتسب القاهرة شملت الوجه البحرى كله .

وحوالى ذلك الوقت تزوج أحمد المقريزى وانجب ، اذ المعروف أن بنتا له ماتت فى سن السادسة بالطاعون الذى اجتاح القاهرة وسائر البلاد المصرية سنة ١٤٠٣ . وهذا الطاعون بالذات هو الذى دفع أحمد المقريزى الى تأليف كتابه « اغاثة الأمة بكشف الغمة ». كما دفعه ضيقه بوظيفة الحسبة ومسئولياتها الى تأليف كتاب « شذور العقود فى ذكر النقود » وكتاب « الأكيال والأوزان الشرعية » .

ويبدو أن بعض هذه الكتب الصغيرة كانت أوائل عهد المقريزى بالتأليف ، كما يبدو من محتوياتها جميعا مدى تأثير عبد الرحمن بن خلدون فى التكوين الفكرى عند تلميذه الموهوب .

لكن المقريزى عاد الى ممارسة التدريس مرة أخرى ، حين عينه السلطان برقوق سنة ١٤٠٨ مدرسا للحديث بالمدرستين الاقبالية والاشرفية بدمشق ، مع التنظر على أوقاف المارستان — أى المستشفى — النورى بها . ثم عينه السلطان فرج بن برقوق نائبا للحكم — أى قاضيا — بدمشق ، استيفاء لشرط الواقف أن يكون المتعينون على الأوقاف الدمشقية قضاة بها .

لكن المقريزى أبى قبول هذا الشرف على الرغم من عرض الوظيفة عليه مرارا ، ويظهر أنه سئم الخدمة الحكومية ، وضاق بتكاليفها وأعبائها ، وانه حصل من المواد البالية التى جاءته من الوقف ، وما ورثه من الأملاك عن جده لأبيه بدمشق نفسها ما أغناه عن تضييق وقته فى كسب العيش عن طريق مجالس الحكم والقضاء .

ويظهر كذلك أن المقريزى استطاع أن يكتب أول مؤلف من مؤلفاته الطويلة فى هذه السنوات الدمشقية من حياته ، وهو كتاب السيرة النبوية الذى عنوانه « امتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والحفدة والأحوال والأتباع » وهو كتاب مشحون باقتباسات متتالية من مؤلفات السابقين فى تاريخ السيرة .

والى تلك السنوات الدمشقية من حياة المقريزى يرجع كذلك كتاب « النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم » وهو كتاب مستمد من فكرة العصبية القبلية التى بنى عليها ابن خلدون معظم نظرياته فى فلسفة التاريخ .

ثم رحل المقريزى عن دمشق بعد اقامته بها نحو عشر سنوات وعاد الى القاهرة ليتوفر على الدرس والتدريس والتأليف الذى وضحت موهبته فيه بما أخرج من المؤلفات الصغيرة . غير أنه تراءى له أن يحج أولا ، كأنما أراد أن يفصل بين مرحلتين من حياته ، ومن أجل ذلك

رحل المقريزى وأسرته حاجا الى مكة التى عرفها هو قبل ذلك ، وجاور بها مدة قصيرة ابان طلبه العلم على أنه ظل مقيما بمكة هذه المرة نحو ما يقرب من خمس سنوات .

واشتغل فى تلك المرحلة المكية من حياته بتدريس الحديث ، وربما يرجع تأليف كتابه الذى عنوانه «الكلام ببناء الكعبة بيت الله الحرام» وكتاب « ضوء السارى فى معرفة تميم الدارى » وكتاب « التبر المسبوك فى ذكرمن حج من الخلفاء والملوك »وكتاب « وصف حضرموت العجيبة » — الى هذه السنوات المكية ، فانها كلها كتب صغيرة خاصة بمحيط بلاد العرب وأخبارها .

ومن الراجح أن الكتاب المسمى « الاعلام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الاسلام » يرجع كذلك الى هذه المجموعة المكية .

ثم استقر أحمد المقريزى بعدئذ بالقاهرة حيث أمضى بقية حياته الطويلة بحارة برجوان التى ما برح منذ شبابه يفاخر بها على سائر الحارات القاهرية .

وبدأ المقريزى نشاطه العلمى فى هذه المرحلة القاهرية من حياته بكتاب تاريخ القاهرة المسمى «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» وهو الكتاب المشهور باسم الخطط لأنه توفر فيه على دراسة المعالم القاهرية من حارات وشوارع ودروب وقياسر وحمامات ورباع وأسواق ومدارس وخوانق ومستشفيات ، فضلا عن أخبار المدن المصرية الكبرى ، وتراجم رجال الدول ونظم الحكم فى مختلف العصور .

ويتضح من اتجاه مؤلفات المقريزى بعد ذلك أنه رسم لعمله المستقبل ترتيبا تاريخيا استهدف به أن يكتب تاريخ كل دولة من الدول الإسلامية فى مصر حتى عصره فى مؤلف مستقل

وبدأ المقريزى هذا الترتيب التاريخى بكتاب « البيان والاعراب فيمن دخل مصر من الاعراب » ثم اعقبه بكتاب « عقد جواهر الاسفاط فى اخبار مدينة الفسطاط » وهو تاريخ لمصر منذ الفتح العربى حتى قيـام الدولة الفاطمية . ثم تلا ذلك كتاب فى الدولة الفاطمية سـماه المقريزى « اتعاظ الحنفا فى أخبار الأئمة الخلفا » ثم بعد ذلك كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » فى أربعة أجزاء ضخمة ، وهو الكتاب الذى غدا أساسا لجميع التواريخ المصرية فى عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية .

ومن الملحوظ أن المقريزى كتب المؤلفات المتقدمة لتكون كلها ذيلا على كتاب « المواعظ والاعتبار » وأنه قصد فى كل منها أن يشرح ما أجمله من أخبار الدولة الاسلامية المصرية فى ذلك الكتاب الكبير . ويظهر أنه عكف أثناء تأليفه هذا الكتب المتقدمة على اعـداد المـادة التاريخية لكتـاب كبير آخر فى التراجم والسير ، وعنوانه « المقفى الكبير » وهو كتاب رغب المقريزى أن يجعل منه معجما كبيرا لتراجم حكام مصر ورجالها الواردين عليها ، منذ أقدم العصور التاريخيـة المعروفة لديه الى ما قبل عصره .

أما كتاب « دور العقود الفريدة فى تراجم الاعيان المفيدة » ، فقصد به المقريزى أن يكون معجما محليا لشخصيات عصره ، وربما بدأ الكتابة فيه وهو ماض فى ترتيب معجمه الكبير .

وكما جعل المقريزى كتاب « المواعظ والاعتبار » أساسا تفرعت عليه مؤلفاته التاريخية فى مختلف مراحل التاريخ المصرى فى العصور الوسطى ، فانه استوحى ذلك الكتاب واسـتهلمه لتأليف كتاب فى التاريخ القديم عنوانه « الخبر عن البشر » وهو عنوان يوحى الى الذاكرة بعنوان كتاب ابن خلدون المشهور .

ثم ألف المقريزى أول كتاب مستقل من نوعه فى اللغة العربية هو « شارع النجاة فى تاريخ الأديان » . كما تناول بالتأليف موضوعات صغيرة مرتبطة بالمجتمع الذى عاش فيه ، وهى كذلك موضوعات من وحى كتاب « المواعظ والاعتبار » مثل كتاب الوزارة .

وللمقريزى كذلك كتب صغيرة أخرى لا ينتظر الباحث انصرافه اليها مثل « المقاصد السنية فى معرفة الحال فى الغناء » وكتاب « الاشارة والايماء فى حل لغز الماء » .. وربما كان مرجع تأليف هذه الكتب المتنوعة الى أيام ولايته وظيفة الحسبة .

وزادت مؤلفات المقريزى الكبرى والصغرى على مائة كتاب ، ويتعجب المعاصرون والمتأخرون ان ينسب ذلك العدد الوافر من الكتب الى مؤلف واحد . وهذا التعجب لا يقتصر على مؤلفات المقريزى ، بل يتعداه الى مؤلفات كثير من المؤرخين وغير المؤرخين فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب .

أما تفسير ذلك فهو أن بعض الكتب الصغرى التى كتبها المقريزى أو غيره من المؤلفين فى تلك العصور لم تتعد موضوعا بذاته أو حادثة بعينها ، وبعض هذه الكتب لا يزيد على مقالة طويلة فى مجلة أسبوعية أو شهرية أو ربعية أو نصف سنوية فى العصر الحاضر وهذا البعض يتسم فى الواقع بالطابع الصحفى لتنوير أرباب الدولة وذلك قبل أن تصبح الصحافة جزاء من مقومات المجتمع .

ولهذا ينبغى أن تعد الكتب الصغرى بمثابة أول محاولة صحفية لتكوين ما هو معروف باسم الرأى العام فى المصطلح السياسى الحديث .

وبهذه المؤلفات المتنوعة الفائقة فى التاريخ وعلومه المساعدة ينال المقريزى أعلى المؤهلات والدرجات التى تستخدمها الهيئات العلمية الحديثة فى تصنيف طبقات المؤرخين الباحثين . فهو أستاذ مبتكر مثابر

صابر أمين فى كل أعماله العلمية وغيرها ، وهو بجلوسه الفعلى والمجازى فى كرسيه الأستاذى العالى بين أجيال مشايخه وسابقيه المباشرين وغير المباشرين فى الأستاذية جدير بأن يسمى عميد المؤرخين فى مصر من ابن عبد الحكم الى الجبرتى .

وهذه الجدارة صادرة عن اعتبارات ثلاثة :

أولها : اخلاقه الشخصية وما فيها من ايمان بحب الوطن ، وايمان بالاستقلال فى الرأى ، وايمان بضرورة الاصلاح فى مختلف طبقات الأمة المصرية .

وثانيا : صفات مؤلفاته نفسها

وثالثا : مجموعة ما أودعه فى مؤلفاته هذه من اقتباسات طويلة وقصيرة من أمهات وثائق لا تزال اصولها مفقودة .

وبعد ، فان مؤلفات المقريزى وغيره من قدماء المؤلفين السابقين فيه لا تزال توصف بأنها كتب صفراء باهتة المعرفة ، مع العلم بأنها كتب سبقنا المستشرقون الى كتابة تاريخنا منها ، فى مؤلفات أوربية وأمريكية بيضاء ناصعة المعرفة . وأقول ان هذه الكتب العربية القديمة الحافلة باصول التاريخ المصرى ليست باهتة المعرفة كما ينعتها بعض الناعتين المحدثين بل تشف بمحتوياتها عن ألوان زاهية مضيئة لمعرفة مصر وأهلها فى العصور الوسطى ، وهى معرفة واجبة علينا للذين نحن أبناؤهم ولا سبيل الى انكار المعرفة الواجبة ، أو التنكر لها أو جحودها أو تصغير شأنها فى تكويننا الحاضر والمستقبل .

وربما يقول بعض القائلين أن مقتضيات الحياة الحديثة تتطلب الاستمداد الثقافى من المؤلفات الغربية الحديثة فحسب ، لا من الكتب الشرقية القديمة واشباهها ، مما طال عليها سالف الأمد . وعندى أنه ينبغى على الشرق الأوسط أن يأخذ من قديم الشرق وحديث الغرب

معا ، على قاعدة الاختيار والاقتباس المستنير من المنبعين مع الملاءمة والاعتدال .

ومن البدهى أن الاقتباس من المنبع الشرقى فى معناه احياة كتب لتراث قديم فى مختلف العلوم والفنون ، بالنشر السليم ، واستخدامها على نحو ما فعل المستشرقون قبلنا . ومن البدهى كذلك أن القنوع بالاستمداد من المؤلفات الغربية الحديثة ، يجعل البناء الثقافى فى الشرق العربى على أساس طارىء عليه ، وهو أخطر أنواع البناء عند أساتذة علم النفس التربوى والاجتماعى .

محمد مصطفى زيادة

مؤلفات المقريزى الصغيرة

للأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال (1)

تقى الدين أحمد بن على المقريزى كبير مؤرخى مصر الاسلامية وزعيمهم دون منازع ، كان فقيها ومحدثا ، وتولى منصب الحسبة فى القاهرة غير مرة ، ثم فرغ لعلم التاريخ ، واستقر فى بيته يؤلف فيه ، فأنتج انتاجا ضخما خصبا .

ومؤلفات المقريزى نوعان : كتب موسوعية كبيرة ، كبيرة الأجزاء ، وكتب أو كتيبات صغيرة .

أما كتبه الكبيرة : ــ

فمنها ما عنى فيه بتاريخ العالم ككتاب « الخبر عن البشر » ، أو التاريخ الاسلامى العام ، ككتاب « امتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأحوال والحفدة والمتاع » وكتاب « الدرر المضيئة فى تاريخ الدولة الاسلامية » .

وأكثرها ما عنى فيه بتاريخ مصر الاسلامية ، فقد وضع لنفسه خطة واضحة تهدف للتاريخ لمصر الاسلامية من جميع نواحيها السياسية والعمرانية والبشرية .

ففى تاريخها السياسى وضع كتبا ثلاثة ضخمة : ــ

(أ) الأول هو « عقد جواهر الأسفاط فى تاريخ مدينة الفسطاط » وأرخ فيه لمصر منذ الفتح العربى الى الفتح الفاطمى .

(ب) والثانى هو « اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الحلفا » وأرخ فيه لمصر فى العصر الفاطمى .

(ج) والثالث هو « السلوك لمعرفة دول الملوك » وأرخ فيه لمصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الى قبيل وفاته فى سنة ٨٤٥ هـ .

وفى تاريخها العمرانى وضع موسوعته الكبيرة « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » وفيه أرخ للمدن المصرية ومعالمها ومنشآتها ومعاهدها العلمية ومؤسساتها الدينية والاقتصادية والحربية والعمرانية ، وضمن حديثه هذا الكثير من المعلومات النادرة القيمة عن مختلف مظاهر الحضارة ونظم الحكم فى مصر منذ دخلها الاسلام الى منتصف القرن التاسع الهجرى (١٥ م) .

وفى تاريخها البشرى وضع كتابين كبيرين للترجمة لرجال مصر :

(أ) الأول هو « كتاب المقفى الكبير فى تراجم أهل مصر والوافدين عليها » وهو كما يتضح من عنوانه مخصص للترجمة للبارزين من أبناء مصر أو ممن وفدوا عليها أو أقاموا بها خلال العصر الاسلامى ، وكان يقدر له أن يخرج فى ثمانين مجلدا ، ولكنه توفى قبل أن يتمه ، ولم تصلنا كل الأجزاء التى أتمها المؤلف ، وانما وصلنا بعضها وضاع البعض الآخر .

(ب) والثانى هو « درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة » وقد خصصه لتراجم البارزين من معاصريه .

ولهذه الكتب الكبيرة أهمية خاصة ، لأن المقريزى نقل فيها عن كتب كثيرة أخرى فقدت ولم تصل الينا نسخ منها ، أو عن كتب أخرى ما زالت مخطوطة ، وهو الى هذا كله مؤرخ ثقة ثبت ، يمتاز بالدقة فيما يروى ، والعناية بما يكتب .

أما كتب المقريزى الصغير فهى فيما نرى ذات أهمية خاصة ويمكننا أن نصنفها الى أصناف أربعة : ـــ

(أ) صنف عنى فيه المقريزى بمناقشة بعض مشـــكلات أو نواحى التاريخ الاسلامى العام : ككتاب النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم » وكتاب «ذكر ما ورد فى بنيان الكعبة المعظمة» « ضوء السارى فى معرفة أخبار تميم الدارى » ... الخ .

(ب) وصنف عنى فيه المقريزى بذكر عرض موجز لتاريخ بعض أطراف العام الاسلامى مما لم يعن به مؤرخون آخرون : ككتاب « الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام » وكتاب « الطرفة الغريبة من أخبار حضرموت العجيبة » (وقد ألف هذين الكتابين أثناء مجاورته فى مكة فى سنتى ٨٣٩ و ٨٤١) .

(جـ) وصنف عنى فيه المقريزى بالترجمة المختصرة لمجموعة من الملوك ، ومنه كتاب « تراجم ملوك الغرب » وكتاب « الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك » .

(د) وصنف عنى فيه المقريزى بدراسة بعض النواحى العلمية البحتة أو بالتأريخ لبعض النواحى الاجتماعية والاقتصادية فى العـــالم الاسلامى عامة أو فى مصر الاسلامية خاصة ، ويمثل هذا الصنف كتب كثيرة منها : ـــ كتاب « المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية » وكتاب « شذور العقود فى ذكر النقود » وكتـــاب « نحل عبر النحل » وكتاب « البيان والاعراب بمن نزل أرض مصر من الأعراب وكتاب « أغاثة الأمة بكشف الغمة » وكتاب « ازالة التعب والعناء فى معرفة حل الغناء » ... الخ .

وهناك ظاهرتان تلفتان النظر عند دراسة مؤلفات المقريزى الصغيرة: أولاهما : أن المقريزى كان عالما بكل ماتحمله كلمة عالم من معنى،

يحب المعرفة لذاتها ويجد المتعة فى البحث والدراسة والاستقصاء ، فهو ينص فى مقدمات معظم هذه المؤلفات الصغرى على انه لم يقدم على كتابتها استجابة لطلب أمير أو عظيم وأنما ألفها اشباعا لذاته المتطلعة الى الاستزادة من العلم والمعرفة ، ولمن يريد أن يشاركه هذا النزوع نحو العلم والمعرفة ، أو على حد قوله هو فى مقدمة رسالته « المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية » :

وبعد فهذه مقالة وجيزة فى ذكر المعادن ، قيدتها تذكرة لى ولمن شاء الله تعالى من عباده « وكرر نفس المعنى فى مقدمته لكتاب » البيان والاعراب فيمن نزل أرض مصر من الأعراب » فقال : « وبعد فهذه مقالالة وجيزة فى ذكر من بأرض مصر من طوائف الأعراب قيدتها لنفسى ولمن شاء الله من أبناء جنسى » .

وثانيتهما : أن المقريزى ألف معظم هذه الكتيبات الصـغيرة فى أخريات حياته ـــ وبعد أن تم نضجه الفكرى واتسعت قراءاته وعمقت معرفته ـــ وبصفة خاصة فى سنة ٨٣٩ هـ أثناء مجاورته فى مكة ، أو فى سنة ٨٤١ هـ بعد عودته الى مصر ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، فهو يقول فى حرد كتابه « الطرفة الغريبة فى اخبار حضرموت العجيبة » : « وبعد فهذه جملة من أخبار وادى حضرموت ، علقتها بمكة ـــ شرفها الله تعالى ـــ أيام مجاورتى بها فى عام ٨٣٩ ، حدثنى بها ثقات من قدم مكة من أهل حضرموت » .

ويقول فى مقدمة كتابه « الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام » :وبعد فهذه جملة من أخبار الطائفة القائمة بالملة الاسلامية ببلاد الحبشة المجاهدين فى سبيل الله من كفر به وصد عن سبيله ، تلقيتها بمكة شرفها الله تعالى ، أيام مجاورتى بها فى سنة ٨٣٩ من العارفين بأخبارهم » .

ويبدو أنه جمع مادة هذا الكتيب فى تلك السنة ، ولكنه لم ينسق بينها ويخرجها فى شكل رسالة الا فى سنة ٨٤١ ، فقد قال فى نهاية الرسالة : « حرره جامعه ومؤلفه أحمد بن على المقريزى فى ذى القعدة سنة ٨٤١ » .

— ومن الكتب التى ألفها فى سنة ٨٤١ كتاب « تجريد التوحيد المفيد » فقد جاء فى حرد مخطوطة باريس من هذا الكتاب : « قال مؤلفه — رحمه الله — انه صححه جهد الطاقة ومبلغ القدرة فى سنة ٨٤١» — ومنها كذلك كتابه «المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية» فقد قال فى ختامه « وحررته فى شوال سنة ٨٤١ » .

— ومنها كتابه « نبذة على عظم قدر أهل البيت » فقد نص فى نهايته على انه ألفه فى ذى القعدة سنة ٨٤١ » .

— ومنها كتابه « الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك » فقد قال ناسخ مخطوطة الاسكوريال من هذا الكتاب : « كتب من أصل بخط مصنفه ، قال مؤلفه — رحمه الله — حررته جهد القدرة فصح . مؤلفه أحمد بن على المقريزى ، فى ذى القعدة سنة ٨٤١ » .

وكتب الصنف الرابع التى ذكرنا آنفا تعتبر — فيما نرى — أهم كتب المقريزى الصغرى وأكثرها قيمة وأطرفها موضوعا ، لأنه عالج فيها موضوعات قلما عالجها غيره من المؤرخين المسلمين ، وبعد فيها قليلا عن تاريخ الخلفاء والملوك والسلاطين والأمراء ، وعنى فيها حينا بالموضوعات العلمية البحتة ، وحينا آخر بالشعب ومشكلاته الاجتماعية والاقتصادية ، ونلاحظ كذلك إن المقريزى فى هذا الصنف من الكتب لم يكن مؤرخا راوية وحسب ، بل هو مؤرخ مبدع أيضا ، جرؤ فناقش

— احيانا — الأحداث والموضوعات وأدلى بآرائه الخاصة ، وحلل الاسباب ، وذكر العلاج .

ومعلوماته فى هذه الكتيبات وثيقة أكيدة تدل على قراءة واسعة ومعرفة متثبتة ، وفكر واضح منظم ، ومنهج علمى سليم ، وساعده على ذلك أمور كثيرة منها : —

١ — أنه كان يملك مكتبة كبيرة ضخمة تضم العديد من الكتب فى مختلف أنواع العلم والمعرفة المتداولة فى عصره ، والدليل واضح فى الكثرة الكثيرة من المراجع التى أشار فى مؤلفاته الى انه رجع اليها وأخذ عنها .

٢ — أنه ولى وظائف كثيرة مختلفة مكنته من التعرف على دولاب الحكومة وكيف يدار وعلى مختلف النظم الادارية والمالية وعلى أحوال الشعب الاجتماعية والاقتصادية ، فقد بدأ حياته الوظيفية موقعا بديوان الانشاء بالقاهرة ، ثم كان مدرسا وقاضيا وناظرا للاحباس ، ثم ولى الحسبة غير مرة ، ولم يكن للمحتسب — كما نعلم — من عمل غير الاشراف على شئون الشعب الاجتماعية والاقتصادية .

٣ — اشتغاله بعلمى الحديث والتاريخ ، وهما علمان يعتمدان أصلا على الجرح والتعديل والنقد والتحليل والتثبت من صحة كل كل قول أو رواية أو حقيقة علمية .

ولعله من المستحسن بعد عرض هذه المبادىء العامة لبيان ما لكتب المقريزى الصغيرة مجتمعة من قيمة علمية أن نتخير نماذج منها لتحليلها واعطاء فكرة عن محتوياتها تأكيدا لما قررنا من مبادىء .

وقد اخترنا لتحقيق هذا الغرض أربعة نماذج :

١ ــــ اغاثة الأمة بكشف الغمة :

لهذا الكتاب أهمية خاصة ، لأنه من الكتب العربية القليلة التى تناولت بالبحث ناحية هامة من نواحى التـــاريخ عليها تتركز عناية المؤرخين المحدثين اليوم ، وهى الناحية الاقتصادية والاجتماعية .

ففى هذا الكتاب يؤرخ المقريزى للغلوات والمجاعات التى أصابت مصر منذ أقدم العصور الى سنة ٨٠٨ هـ ، وهو يذكر فى مقدمته أن السبب الذى دفعه الى تأليف هذا الكتاب هو مجاعة متقطعة حدثت فى زمنه من سنة ٧٩٦ الى ٨٠٨ ، فرأى أن يبين أن « مابالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد ، لا أنه كما مر من الغلوات وانقضى من السنوات المهلكات » .

وفى الكتاب عرض لطيف للأسباب التى كان أرباب الحكم فى مصر يطبقونها لتخفيف آلام ــــ المجاعات وأمراضها عن الشعب المصرى ، غير انه مما يدعو الى الغرابة انه برغم تتابع المجاعات ، وبرغـــم أن الكتاب مفرد لتاريخها فى مصر فان المقريزى لم يذكر سوى حادثتين اثنتين يمكن الاستدلان منهما على يقظة الشعب وثورته على ما كان هناك من أسباب اقتصادية لحدوث هذه المجاعات ، ولم يقنع المقريزى فى هذا الكتاب بسرد الاحداث وايراد اخبار المجاعات وحسب ، بل جرؤ فناقش الأسباب التى أدت الى حدوث المجاعة فى عصره وحاول ان يقترح الوســـائل لعلاجها ، فالأسباب فى نظره كانت تتخلص فى أمور ثلاثة شرحها شرحا مسهبا وهى : ــــ

ــــ ولاية الوظائف السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة .

ــــ غلاء ايجار الأطيان وزيادة نفقات الحرث والزراعة على مبلغ ما تغله الأرض من محصول .

ــــ رواج الفلوس النحاسية ــــ وهى من المحقرات ــــ فى المعاملات

والبعد عن القاعدة السـليمة للتعامل النقدى ، وهى قاعدة الذهب والفضة .

ويقول الأستاذ الدكتور / حسين فهمى فى الدراسة القيمة التى قدم بها الطبعة الثانية من هذا الكتاب « واشهد انى حين قرأت هذا الكتاب اعجبت به اعجابا شديدا ، فهو يحوى بين دفتيه عرضا لنظريتين من النظريات الاقتصادية الحديثة المعقدة تتصـل احداهما بالازمات ودرينها والثانية خاصة بتثبيت النقد وعلاج تدهوره » .

وقد اوضح الدكتور / حسين فهمى فى هـذه المقدمة كيف ان المقريزى سبق العـالم الاقتصادى الانجليزى المشهور جريشام بمائة سنة فى شرح النظرية القائلة بأن « النقود الرديئة تطرد النقود الجيدة من التداول » .

وقد استطرد المقريزى أثناء شرحه فأوضح أثر الاسراف فى اصدار الفلوس واستخدامها عملة رئيسية ، وقسم المجتمع الى طبقات ، وبين أثر التضخم فى حالة هذه الطبقات ، موضحا ان أفراد الطبقات ذات الداخل الثابت هم الذين يتأثرون تأثرا واضحا بهذا التضخم .

والكتاب ــ رغم صغر حجمه ــ حافل بمعلومات قيمة كثيرة لا تزال توحى بدراسات اجتماعية واقتصادية ، وقد ترجمه أخيرا الى اللغة الفرنسية المؤرخ الفرنسى الكبير جاستون فييت .

٢ ــ كتاب نحل عبر النحل :

بدأ المقريزى كتابه هذا بالحديث عن النحل من الناحية الحيوانية ، فتكلم عن اليعاسيب ووصفها ، وعن العامل من النحل والبطال ، ثم ذكر اسماء النحل فى ادوار نموه المختلفة منذ تخلقه برقة الى أن يصير نحلة ، ثم اسماءه وهو يطير جماعات : كالطرد ، والثول ، والعنقود ،

والخشرم ... الخ ثم عرض بعد ذلك لألوانه واحجامه ، وصفاته الخلقية والخلقية ، مستنبطا من ذلك كله العظة والعبرة لبنى الانسان .

وترك المقريزى هذا ليتحدث عن بيوت النحل أو خلاياه ، ما يوجد منها فى الجبل أو فى السهول ، أو فيما يعرش الناس ، مقارنا بين كل نوع ونوع ، ثم ذاكرا الاسماء اللغوية المختلفة لهذه الخلايا ، وهى كثيرة : كالنحيتة والمعسلة ، والكوارة ، والمبآة ، والوقبة ... الخ .

وفى فصـــل ثان تحدث عن آفات النحل : كالدبر والخطاطيف ، والضفادع ، والسوس ، والجرذان ، وعن مبلغ ما تحدثه كل آفة من هذه بالنحل وعسله وخلاياه من ضرر ، ثم وصف العلاج لهذه الآفات.

وعرج بعد هذا على العسل ، فذكر أنواعه وأوصافه المختلفة ، من حيث الطعم والرائحة والكثافة والرقة ، والصفاء والكدر ، وكثرة الحلاوة وقلتها .. الخ .

ثم تكلم بعد ذلك عن جامع العسل ، أو مشتاره ، وعن الألقاب الكثيرة التى يلقب بها هذا المشتار ، وعن الآلات التى يستعين بها أثناء عمله ، وخاصة فى الخلايا الجبلية .

وتحدث المؤلف بعد ذلك عن النحل ومكانته الاقتصادية فى مصر الاسلامية موردا من موارد المعاملات السلطانية والجهات الديوانية ، وذكر مقدار ما كانت النحل تغله للدولة من عسل وشمع فى كل سنة .

وعقد المؤلف فصلا خاصا تحدث فيه عن الأزهار والانوار التى يرعاها ويرتشفها النحل ، كاللوز ،والندغ ، والسحاء ، والســدر ، والرمان ، والجلفار ... الخ ثم وازن بين اصناف العسل الذى ينتجه النحل على تنوع غذائه بكل نوع من هذه الزهور ، وأى هذه الاصناف أحسن أو أحلى ، وأيها أردأ أو أقل حلاوة ، ثم تحدث بعد هذا عن الفوائد الطبية الكثيرة لعسل النحل .

وانتقل من هذا الى الحديث عن الشمع ، وماهو ، وكيف يتكون، ثم اسهب فى ذكر ما ورد فى النحل والعسل من آيات قرآنية وأحاديث نبوية ، مع العناية بأقوال الشراح والرواة المختلفين وختم هذا الفصل يذكر الحكم الفقهى فى النحل : أتؤخذ منه الزكاة أو لا تؤخذ ، ويحل للمسلمين أكله كحل الجراد ، أو لا يحل .

وانتهى المقريزى الى الفن الحبيب الى نفسه ، وهو التاريخ ، فنقل فى كتابه الحوادث التاريخية التى تتصل بالنحل ومنتجاته — وخاصة الشمع — فقد كان للشمع فى مصر الاسلامية مركز اقتصادى هام ؛ لأنه كان من أهم وسائل الاضاءة — ان لم يكن أهمها — فهو يذكر كم طنا من الشمع استعمل فى حفلات زواج أبناء الخلفاء أو السلاطين أو الأمراء ، وكيف كان حجم هذه الشموع وشكلها ولونها ... الخ .

ثم يستطرد فيصف هذه الحفلات وصفا شائقا ، وهذا الفصل طريف لأنه يعطينا صورا حية نادرة لبعض نواحى الحياة الاجتماعية فى العصر الاسلامى .

ويختم المقريزى كتابه بفصل جميل أورد فيه كثيرا من الشعر الذى قيل فى الشمع ، فهو يروى أبياتا لكثير من الشعراء : كالموفق يوسف ابن الخلال — صاحب ديوان الانشاء فى العصر الفاطمى وأبى نصر بن كشاجم ، ومظفر بن محاسن ، وأحمد بن يوسف التيفاشى ، وابن حمديس الصقلى ، وغيرهم كثيرين .

٣ — الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك :

هذا الكتاب يتناول موضوعا طريفا ، فهو يؤرخ لكل من حج من الخلفاء والملوك ، وقد بدأ المؤلف بالتاريخ لحجة الرسول عليه السلام المعروفة بحجة الوداع ، ثم قسم الكتاب قسمين ، أرخ فى القسم الأول

لمن حج من الخلفاء مدة خلافته من الراشدين والأمويين والعباسيين ، وأرخ فى القسم الثانى لمن حج من الملوك والسلاطين منذ أن انقسمت الخلافة الى دويلات يحكمها ملوك الى عهد السلطان الملك الاشرف شعبان أحد سلاطين المماليك بمصر ، ولم يتقيد المؤلف فى اختياره بدولة ما أو ببلدة ما ، بل أنه تتبع الملوك فى مختلف البلدان الاسلامية من مصر الى اليمن الى الشام الى بلاد التكرور ، واحصى من حج من ملوكها فأرخ لهم الواحد بعد الآخر .

والكتاب على صغر حجمه ــ مفعم بالمعلومات القيمة الجديدة وقد جمعت فى صعيد واحد عن موضوع واحد هو « الحج » ففى الفصل الأول عن حجة الرسول معلومات مركزة عن بعض شعار الحج كالعمرة ، والقران ، والأفراد ، والتمتع ، والهدى ... الخ .

والفصلان التاليان عمن حج من الخلفــاء ومن حج من الملوك تتخللهما معلومات كثيرة طريفة عن الاصلاحات المتتالية التى قام بها الخلفــاء والملوك فى مكة والمدينة ، وأول من قام باصلاح عمر بن الخطاب ، فقد بنى المسجد الحرام ووسع فيه ، واستأذنه أهل المياه فى أن يبنوا منازل بين مكة والمدينة ، فأذن لهم ، وشرط عليهم ان ابن السبيل أحق بالظل والماء .

ومن المعلومات الطريفة الجديدة ان طريق الحج من العراق الى مكة كانت تبنى فيه للخلفاء فى كل منزلة ينزلونها دار ، ويعد لهم فيها سائر ما يحتاج اليه من الستور والفرش والأوانى وغير ذلك ، وانهم كانوا يعينون موظفا خاصا للاشراف على هذه المنازل والدور يسمى « متولى المنازل » . وقد ذكر المؤلف ان الخليفة العباسى المهدى أمر ببناء القصور بطريق مكة أوسع من القصور التى بناها السفاح ، وانه أمر باتخاذ المصانع ــ لخزن الماء ــ فى كل منها ، وتجديد الأميال ــ أى علامات الطريق ــ وحفر الركايا ــ أى الآبار .

ومما يستدعى الالتفات ـــ لطرافته ـــ ان المهدى كان أول خليفة حمل اليه الثلج الى مكة ، وانه أمر لأول مرة ، وفى سنة ست وستين ـــ بأقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن ـــ بغالا وابلا ـــ ولم يكن ـــ كما يقول المقريزى ـــ هناك بريد قبل ذلك .

وبين ثنايا الكتـــاب تنتشر معلومات قيمة عن كســـوة الكعبة ، فالمقريزى يذكر ان الكسوة كانت تعمل من الديباج المذهب ، ويقول « وكانت الكسوة لا تنزع من الكعبة فى كل سنة كما هو العمل الآن ـــ أى فى أيامه ـــ بل تلبس كل سنة كسوة فوق تلك الكسوة ، فلما تكاثر العهد وكثر ذلك خافت السدنة على الأركان أن تنهدم لثقل ما عليها من الكسوة » ، حدث هذا فى عهد الخليفة العباسى المهدى ، فنزع الكسوات القديمة وألبسها كسوته .

ومن المعروف أن كسوة الكعبة منذ عهد عمر بن الخطاب كانت تصنع فى دور الطراز فى تنيس وشطا وتونة ودمياط من مدن مصر ، وقد أضفنا نحن عند نشر هذا الكتاب حاشية طويلة فى أحدى صفحاته لخصنا فيها تاريخ الكسوة صنعت فى عهد الناصر محمد بن قلاوون فى دار الطراز بالاسكندرية ، وهذا أمر طبيعى فان صناعة النسيج فى دمياط وما حولها تدهورت فى عهد المماليك ، ولكنها ازدهرت فى مدينة الاسكندرية .

والباحث فى الحيـــاة الاجتماعية على عصر المماليك يجد فى هذا الكتاب نصوصا كثيرة هامة ، لعل أطرفها وصف المواكب التى كانت تصحب سلاطين المماليك عند خروجهم للحج والاستعداد الضخمة التى كانت تتخذ لأمداد القافلة بكل ما يحتاج اليه السلطان من مأكول ومشروب ومشموم وملبوس ، يتضح هذا فى وصف المقريزى لموكب الناصر محمد بن قلاوون ، ففيه يقول : « فعمل (كريم الدين الكبير

ناظر الخاص) عدة قدور من فضة ونحاس تحمل على البخاتى ليطبخ فيها ، واحضر الخولة لعمل مباقل وخضروات ورياحين ومشمومات فى احواض خشب لتحمل على الجمال وتسقى طول الطريق ، ويؤخذ منها كل يوم ما يحتاج اليه ، ورتب الأفران وقلائى الجبن وصناع الكماج والسميذ وغير ذلك مما يحتاج اليه ... الخ » .

والكتاب أخيرا به معلومات كثيرة دقيقة ومقيدة عن علاقة مصر فى العصور الاسلامية بجيرانها فى آسيا وأفريقيا ، كالحجاز واليمن والشام وبلاد التكرور .

٤ ـ المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية :

هذا كتاب علمى بحث يبحث فى المعادن ، وهو يدل دلالة واضحة على أن المقريزى لم يكن محدثا ومؤرخا وحسب ، بل على أنه شارك مشاركة فعلية فى الألمام بدراسات علمية دقيقة ومتعمقة فى علوم التاريخ الطبيعى من نبات وحيوان ومعادن وما يتصل بها من علوم الفلك والجغرافية ، وأسلوبه فى هذا الكتاب أسلوب علمى دقيق ، فهو بعيد عن المحسنات البديعية ، وهو مركز غـاية التركيز بحيث لا تستطيع أن تحذف كلمة من جملة والا فسد المعنى وتغير ، والمعلومات التى أوردها متطورة ومتقدمة اذا قورنت بالعصر الذى عاش فيه وهو القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، فهو يقول مثلا بكروية الأرض بل هو يقول بأحدث ما يقـول به الجغرافيون اليوم فينص على ان شكل الأرض « قريب من الكرة » وعلى أنها متحركة واذ كان هذا الكتاب لا زال مخطوطا فأنى أوثر أن أنقل هنا بعض فقرات منه فهى أوضح دليل على صدق ما قلت .

قال فى مقدمة الكتاب :« أعلم أن الأرض جسم بسيط ، طبعها بارد

يابس ، وهى متحركة الى الوسط ، وشكلها قريب من الكرة ، والقدر الخارج منها محدث ، وخلقت باردة لأجل الغلظ والتماسك ، اذ لولاهما لما أمكن قرار الحيوان على ظهورها وحدوث المعادن والنبات فى جوفها، وهى ثلاث طبقات : طبقة قريبة من المركز وهى الأرض الصرفة ، وطبقة طينية انكشف بعضها وأحاط البحر بالبعض الآخر ، والأرض الأفلاك وهى واقعة فى الوسط والهواء والماء يحيطان بها من جميع الجهات ، والانسان فى أى موضع وقف على سطح الأرض تكون رأسه مما الأرض ، وهو يرى من السماء نصفها ، واذا انتقل الى موضع آخر ظهر له من السماء مقدار ما خفى عنه من الجانب الاخر ، ولكل تسعة عشر فرسخا فى الأرض درجة من درجات الفلك والبحر محيط بأكثر وجه الأرض والمكشوف منها قليل ، وهو نابت عن الماء على هيئة بيضة غاطسة فى الماء وقد خرج من الماء محدبها ، ونيس الأرض منتصبة ولا ملساء ولا مستديرة ، بل كثيرة الارتفاع والانخفاض .. الخ .

ويأتى بعد المقدمة فصل عنوانه « الاجسام المتولدة » يمهد به المقريزى للكلام عن المعادن ، والاجسام المتولدة عنده « أما نامية أو غير نامية ، والنامية أما أن تكون لها قوة الحس والحركة أو لا ، فالتى لها الحس والحركة هى الحيوان ، والتى لاحس لها ولا حركة فهى النبات ، وغير النامية فهى المعادن » ، وبعد أن يتكلم عن تكوينات كل جسم من هذه الأجسام يفرد فصلا كبيرا للحديث عن « اقسام المعادن » وهى موضوع الكتاب .

ويقول فى مقدمة هذا الفصل : « أعلم ان الأجسام المتولدة من الأبخرة والأدخنة المحتبسة فى الأرض اذا اختلطت على ضروب من الاختلاطات مختلطة فى الكم والكيف كانت أما قوية التركيب أو متطرقة أو غير متطرقة ، والمتطرقة هى الأجساد السبعة التى لها الفلزات وهى : الذهب والفضة ، والنحاس والرصاص والحديد ،

والاسراب ، والخارصين ، وغير المتطرقة اما غاية فى اللين أو غاية فى الصــــلابة فالتى فى غاية اللين كالزئبق ، والتى فى غاية الصــلابة كاليواقيت ، وهى اما تنحل بالرطوبات وهى الاجسام الملحية كالزاج والشب والنوشادر ، واما لاتنحل وهى الأجسام الدهنية كالزرنيخ والكبريت على اختلاف اختلاطها فى الكم والكيف .. الخ .. الخ » .

وهكذا يستمر المقريزى ـــ بعد هذه التصنيفات الكلية ـــ فى كلامه عن المعادن واحدا بعد الآخر شارحا تكوينه وصفاته ومكان وجوده ، وقيمته العلمية والمادية والطبية بهـذا الاســلوب العلمى الدقيق الرصين ..

جمال الدين الشيال

خطط المقريزى
بين الأصالة والنقل

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يعتبر تقى الدين المقريزى الذى نحتفل اليوم بذكرى مولده الستمائة ، من بين المؤرخين المصريين ، اغزرهم انتاجا ، واهمهم آثارا ، وأجزلهم أسلوبا ، وأصدقهم تعبيرا عن الروح المصرية ، فى مختلف مناحى الحياة والتفكير .

وقف المقريزى حياته الخصبة على تدوين تاريخ مصر الاسلامية وتدوين أمجادها ومنحها ، فى مثابرة تثير الدهشة والاعجاب ، يدفعه الى ذلك حب مضطرم لذلك الوطن الذى نشأ فيه ، وترعرع بين ربوعه ، وشهد خلال حياته طرفا من محنه وأمجاده ، وسحرته معاهدة ومغانيه وصروحه وآثاره .

وأشد ما تبدو هذه القاهرة التى تطبع كتابات المقريزى ، فى كتابه « الخطط » . والخطط فى الواقع هى أجل ثمار هذه العاطفة المضطرمة ، وما أوحت من مثابرة وجلد . وفى الخطط يبلغ المقريزى ذروة الاستيعاب والافتنان والروعة ، فى وصف الخطط المصرية ، وخطط الفسطاط والقاهرة المعزية ، ونشأة كل منهما ، وأحيائها ، وصروحها ، وتطوراتها الجغرافية والعمرانية ، ومساجدها وقصورها ومعاهدها : وكل ما احتوت من بذخ وبهاء وفن ، ويقرن ذلك فى معظم الأحيان بتاريخ الدول والشخصيات التى قامت فى ظلها هذه الصروح أو أوحت

بانشائها . ثم هو لا يقف عند النواحى التخطيطية والأثرية والفنية ، ولكن يفيض فى النواحى العمرانية والاقتصادية . وبهـذه المحتويات يلقى كتاب « الخطط » على تاريخ مصر السياسى والأثرى والاجتماعى والاقتصادى ، فى العصور الوسطى ، أعظم أضواء اجتمعت فى هـذا الأثر الخالد .

وقد لبث هذا الأثر الخالد ــ كتاب الخطط ــ على كر العصور موضع التقدير والاعجاب . وما يزال الى يومنا من أنفس المصـادر فى تاريخ مصر الاسلامية ، ولكن هذا الكتاب الجـامع الذى يتوج مجهود المقريزى التاريخى ، قد عرض للانتقاص من أحد أعلام عصره. بل أنكر عليه فضل وضعه وابتكاره ، ونسب الى النقل والاختلاس . وصاحب هذه التهمة الغريبة هو شمس الدين السخاوى ، نسبها الى المقريزى فى مؤلفاته غير مرة ، أحيانا بطريق مباشر ، وأحيانا بنسبتها الى شيخه الحافظ ابن حجر . والسخاوى من أقطاب التفكير والنقد فى القرن التاسع الهجرى ، بل هو من أعظم النقدة فى تاريخ الأدب العـربى . وهو من الناحية النقدية بالنسبة لأدبنا يمكن أن يقـارن بسانت بيف بالنسبة للأدب الفرنسى . فقد كان سنت بيف أستاذ عصره فى النقد الأدبى . وكانت حملاته الناقدة تثير من حوله كثيرا من البغض والخصومة . ولكن سوف نرى أن هذه الحملة القاسية التى يوجهها السخاوى الى المقريزى ، وهذه التهمة المشينة التى ينسبها اليه ، أبعد ما يكون عن الحق ، وانها بالعكس نفثة من نفثاته يطبعها التحـامل والتناقض ، وتدحضها الحقائق المادية .

يقول السخاوى فى ترجمته للمقريزى فى كتابه « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » بعد أن عدد مؤلفاته :

« وكان حسن المذاكرة بالتاريخ ، ولكنه قليل المعرفة بالمتقدمين »،

ولذلك كثر له فيهم وقوع التحريف والسقط . وكانت له معرفة قليلة بالفقه والحديث والنحو ، والاطلاع على أقوال السلف ، والمام بمذاهب أهل الكتاب ، حتى كان يتردد اليه أفاضلهم للاستفادة منه ، مع حسن الخلق وكرم العهد ، وكثرة التواضع ، وعلو الهمة لمن يقصد .. كل ذلك مع تبجيل الأكابر له ، اما مداراة له وخوفا من قلمه، أو لحسن مذاكرته .

« وكان كثير الاستحضار للوقائع القديمة فى الجاهلية ، وغيرها . وأما الوقائع الاسلامية ، ومعرفة الرجال وأسماؤهم والجرح والتعديل، والمراتب والسير ، وغير ذلك من أسرار التاريخ ومحاسنه ، فغير ماهر فيه » .

هكذا يتردد السخاوى فى ترجمته للمقريزى بين المديح والذم ، وبين التقدير والانتقاص . على أنه لا يقف عند هذا التعميم ، بل يذهب الى صوغ التهمة المعينة فيقول فى سياق حديثه :

« وأقام ببلده (أى المقريزى) عاكفا على الاشتغال بالتاريخ ، حتى اشتهر ذكره ، وبعد فيه صيته ، وصارت له فيه جملة تصانيف كالخطط للقاهرة ، وهو مفيد لكونه ظفر بمسودة الأوحدى ، فأخذها وزادها زوائد غير طائلة » .

ويعود السخاوى فيكرر هذه التهمة فى كتاب وضعه فى أواخر حياته سنة ٨٩٧ هـ بمكة وهو « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التواريخ » فيقول :

« وكذا جمع خططها (أى مصر القاهرة) المقريزى ، وهو مفيد . قال لنا شيخنا انه ظفر به مسودة لجاره الشهاب أحمد بن عبد الله بن الحسن الأوحدى ، بل كان بيض بعضه ، فأخذها وزاد عليها زيادات ونسبها لنفسه » .

والشهاب الأوحدى هذا الذى نسب الى المقريزى اختلاس أثره ، هو من كتاب القرن الثامن . ولد سنة ٧٦١ هـ وتوفى سنة ٨١١ هـ وذكره السيوطى فى « حسن المحاضرة » ضمن مؤرخى مصر ، وقال انه « كان لهجا بالتاريخ ، وألف كتابا كبيرا فى خطط مصر والقاهرة وكان مقرئا أديبا » .

وترجم له السخاوى فى « الضوء اللامع » فقال : « انه برع فى القرآن والأدب . وجمع مجاميع . واعتنى بالتاريخ ، وكان لهجا به ، وكتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة تعب فيها وأجاد ، وبيض بعضها ، فبيضها التقى المقريزى ، ونسبها لنفسه مع زيادات .. وفى ترجمته فى عقود المقريزى فوائد ، واعترف بانتفاعه بمسوداته فى الخطط وأنه ناوله ديوان شعره » .

وهكذا ينسب السخاوى الى المقريزى تهمة اختلاس « الخطط » أينما سنحت له فرصة الكتابة وأينما جاء ذكر الخطط .

ولنلاحظ أولا أن السخاوى يذكر حسبما تقدم ، أنه تلقى هذه التهمة الخطيرة التى ينسبها الى المقريزى عن شيخه .. وشيخ السخاوى المشار اليه هنا هو الحافظ ابن حجر . وكثيرا ما يستتر السخاوى فى حملاته القاذفة بشيخه . وقد كان هذا شأنه فى حملته اللاذعة على المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون .

ويجب أولا لتمحيص هذه التهمة ، أن نستعرض المصادر التى اعتمد عليها المقريزى فى كتابه « خططه » لأنه لم ينس أن يشير الى هذه المصادر فى مقدمته حيث يقول :

« وأما أى أنحاء التعاليم التى قصدت فى هذا الكتاب ، فإنى سلكت فيه ثلاثة أنحاء ، وهى النقل من الكتب المصنفة فى العلوم .

والرواية عمن ادركت من شيخه العلم وجلة الناس . والمشاهدة لما عاينته ورأيته .

فأما النقل من دواوين العماء التى صنفوها فى أنواع العلوم ، فانى أعزو كل نقل الى الكتاب الذى نقلت منه ، لأخلص من عهدته ، وأبرأ من جريرته ، فكثير ممن ضمنى واياه العصر واشتمل علينا المصر ، صار لقلة اشرافه على العلوم ، وقصور باعه فى معرفة علوم التاريخ ، وجهل مقالات الناس ، يهجم بالأفكار على ما لا يعرفه . ولو أنصف لعلم أن العجز من قبله . وليس ما تضمنه هذا الكتاب ، من العلم الذى يقطع عليه ، ولا يحتاج فى الشريعة اليه . وحسب العالم أن يعلم ما قبل ذلك ويقف عليه . وأما الرواية عمن أدركت من الجلة والشمايخ ، فانى فى الغالب والأكثر ، أصرح باسم من حدثنى ، الا أن لا يحتاج الى تعيينه أو أكون نسيته ، وقل ما يتفق مثل ذلك . وأما ما شاهدته فانى أرجو أن أكون ، ولله الحمد ، غير متهم ولا ظنين » .

ثم يتبع المقريزى ذلك بكلمة عن كتاب « الخطط » يشير فيها الى جهود الكندى ، والقضاعى ، وابن بركات النحوى ، والجوانى ، وابن عبد الظاهر ، وابن المتوج ، ويذكر أن ابن المتوج كان آخر من كتب قبله عن الخطط ، وأنه يصل فى كتابه الى ذكر أحوال مصر وخططها ، الى أعوام بضع وعشرين وسبعمائة . على أن المقريزى لا يقف عند هذا التعميم فى ذكر مصادره ، بل يعود فى سياق كتابه فيذكرها بأدق تشخيص وأوضحه ، فلا يكاد ينقل رواية أو واقعة أو وصف الا أسنده الى مصدره ومؤلفه ، فأما أخبار فتوح مصر وتاريخها قبل الاسلام ، فيرجع فى معظمها الى ابن عبد الحكم ، وابن يونس ، والمسعودى ، وابن وصيف شاه ، ويرجع فى أخبار الفسطاط الأولى الى الكندى وابن زولاق . وفى وصف النيل وغيره من الموضوعات الجغرافية الى المسعودى . وفى عصر الدولة الفاطمية ، وهو من أبدع أقسام الخطط ،

يرجع المقريزى بالأخص الى ابن زولاق ، والمسبحى وابن المأمون ، والجوائى وقد عاشوا جميعا فى العصر الفاطمى ، وكتبوا عن مشاهدة ومعرفة وثيقة . وفيما يلى ذلك من أخبار مصر والقـاهرة ، يرجع المقريزى الى القاضى الفاضل ، وابن عبد الظـاهر ثم ابن المتوج . وهكذا يستقى المقريزى مادته تباعا من سلسلة متصلة من المصادر ، تبدأ بابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ وتنتهى بابن المتوج المتوفى فى سنة ٧٣٠ هـ مسندا كل اقتباس الى مؤلفه .

على أنه اذا كان من الصعب أن نجد فى هذه الأقسام المسندة الى مصادرها الوثيقة ، أثرا أو لمحـة مما يؤيد اتهـام السخاوى لمؤلف الخطط ، فأنه يصعب علينا أن نجد ما يؤيد هذا الاتهـام فى بقيـة الخطط ، وهو ما تعلق بأخبار مصر القاهرة خلال القرن الثامن وأوائل القرن التاسع ، أو بعبارة أخرى ، فى العصر الذى أدرك المقـريزى شيوخه ، ثم عاش فيه . والمقريزى صريح فى أنه اعتمد على من أدرك من « شيخه العلموجلة الناس » . وأما العصر الذىعاش فيه المقريزى، والذى يمتد من واخر القرن الثامن الى أواسـط القرن التاسع فانه يشغل حيزا كبيرا فى الخطط ، وقد عاصر المقريزى من ملوك مصر عشرة متعاقدين ، وأدرك مرحلتين كبيرتين فى تطور مصر القاهرة ، والمجتمع المصرى : الأولى فى أواخر القرن الثامن حيث كانت مصر القاهرة ، بعد ما أصابها من وباء وعفـاء . ترتدى ثوبا جـديدا من الحياة . والثانية بعد المحن التى توالت عليها بين سنتى ٨٠٦ و ٨١٢ من وباء وغلاء وشرق ، حيث عادت ثانية تسترد عمرانها وبهاءها . وقد أفاض المقريزى فى أخبار هذين العصرين وأحوالهما وآثارهما . وكان المقريزى بحـكم الوظائف التى تولاهـا وخظوته لدى بعض الملوك الذين عاصرهم ، متمكنا من سبل البحث والتحـرى والاسـتطلاع والمعاينة . وتفس الوقائع المادية هنا تهدم تهمة السخاوى من أساسها .

ذلك أن الشهاب الأوحدى الذى نسب المقريزى الى اختلاس آثره قد توفى كما رأينا ، فى أوائل سنة ٨١١ هـ . وقد بدأ المقريزى بكتابة « خططه » حسبما يبدو من بعض اشاراته بين سنتى ٨٢٠و٨٢٥ هـ واستمر فى كتابتها حتى سنة ٨٤٣ هـ ، أعنى حتى قبل وفاته بنحو عامين . فليس من الممكن عقلا أن يكون المقريزى قد نقل عن الأوحدى شيئا يتعلق بأحوال هذه الفترة ، التى توفى قبلها ولم يدرك شيئا منها .

وماكتبه المقريزى عن خطط مصر والقاهرة ، منذ أوائل القرن الثامن الى ما قبل وفاته ، يشغل من مؤلفه أكثر من النصف ، فاذا أضفنا الى ذلك أن المقريزى يقتبس من أسلافه كتاب الخطط وغيرهم، بطريق الاسناد شذورا تعد بالمئات ، كان ما تبقى مما يمكن أن يكون موضع الاتهام ، جزءا يسيرا جدا ، يصعب علينا أن نعتقد ، أن المقريزى وهو امام عصره فى التاريخ والرواية ، كان بحاجة الى اختلاسه ، وخصوصا وقد استعرض تاريخ مصر من قبل ، فى عدة مؤلفات جليلة تشهد بفائق مقدرته وبراعته .

وقد رأينا أن السخاوى يرجع الرواية فى اتهام المقريزى الى شيخه الحافظ ابن حجر فى كتابه « الاعلان بالتوبيخ » وان كان يوردها من عنده فى « الضوء اللامع » ولكن اليك ما يقوله ابن حجر عن المقريزى وعن مجهوده التاريخى وهو مما أورده السخاوى فى ترجمته أيضا :

« وقد ذكره شيخنا فى القسم الأخير من معجمه الذى وقف صاحب الترجمة عليه بقوله : وله (أى المقريزى) النظم الفائق والنثر العابق ، والتصانيف الباهرة ، خصوصا فى تاريخ القاهرة ، فانه أحيا معالمها وأوضح مجاهلها ، وجدد مآثرها ، وترجم أعيانها » .

ويذكر ابن حجر أيضا فى ديباجة كتابه « رفع الاصر عن قضاة مصر » المقريزى ضمن مصادره ، ويصفه بقوله : « رفيقى الامام الأوحد المطلع تقى الدين المقريزى .. » وهذا التقدير الواضح من

جانب الحافظ ابن حجر للمقريزى وجهوده التاريخية ، يجعلنا نقف ازاء رجوع السخاوى فى اتهام المقريزى الى شيخه ابن حجر موقف التريث والتحفظ .

والواقع أن مهاجمة السخاوى لأكابر عصره ، وانتقاصه لأقدارهم، ونقده لجهودهم ، لم تقف عند المقريزى ولم تقتصر عليه ، فتراه فى الضوء اللامع يهاجم طائفة كبيرة من أعلام هذا العصر ومؤرخيه ، بل لم ينج ابن خلدون نفسه من لومه وتعرضه .

وقد كان السخاوى مثل سنت بيف يثير من حوله بحملاته الأدبية والنقدية اللاذعة بينه وبين معاصريه خصومات مضطرمة ، وقد نشبت بينه وبين عدد من زملائه الكتاب والأدباء معارك قلمية ملتهبة . واشتهرت من هذه المعارك بالأخص ، تلك التى نشبت بينه وبين البقاعى ، ثم تلك التى نشبت بينه وبين السيوطى . واشتهرت تلك المعركة الأخيرة بالأخص فى أوساط العصر بما تخللها من حملات لاذعة ومهاترات شخصية مؤلمة بين هذين الكاتبين والحافظين الكبيرين . ولو كانت المبارزة من التقاليد الذائعة فى المجتمع المصرى فى ذلك العصر ، كما كانت ذائعة فى فرنسا ، لنشبت بين السخاوى وبين خصومه أكثر من مبارزة دامية . وعلى أى حال فقد كان لهذه الحملات التى شهرها السخاوى على خصومه ، وشهرها خصومه عليه أبعد صدى فى أواخر القرن التاسع الهجرى .

ولم يلق هذا الاتهام الذى يوجه السخاوى الى المقريزى ، كبير اهتمام فى دوائر البحث الحديث . غير أن الأستاذ بروكلمان ، قد أشار اليه فى ترجمته للمقريزى فى دائرة المعارف الاسلامية ، حيث يصف « الخطط » بأنها أهم آثار المقريزى . ثم يقول « ولكن الظاهر أنه

نقل ما لم ينسب النقل فيه ، عن كتاب للأوحدى ظفـر به على قول السخاوى ، وهو قول حسن التأييد » . ويعتقد المستشرق جست من جهة أخرى أن المقريزى ، قد نقل فى « خططه » شذورا من الأوحدى دون الاسناد اليه . على أن الأستاذ بروكلمان لم يقدم دليلا لتأييد رأيه ، وقلما يشاركه فيه أحد ممن كتبوا عن المقريزى ومجهـوده . وبالعكس فان البحث الحديث يكبر مجهود المقريزى ويحله المقـام الأول فى تراث التاريخ الاسلامى .

بقى فرض واحد يمكن الأخذ به ، وهو أن المقريزى ربما انتفع ضمن مصادره بمجهود الأوحدى وهو ما يشير اليه السخاوى حيث يقول فى ترجمته للأوحدى « وفى ترجمته فى عقود المقريزى فوائد . واعترف (أى المقريزى) بانتفاعه بمسوداته فى « الخطط » . هذا اذا سلمنا بصحة نسبة هذا الاعتراف للمقريزى لأنه لم يصل الينا من عقود المقريزى ـــ أى دور العقود المفيدة ـــ سوى قطعة ضئيلة . وعلى أى حال فان المقريزى يشير الى الأوحدى كمصدر من مصادره ولكن فى موطن واحد فقط من الخطط ، فهو يقول لنا ما يأتى فى خاتمة كلامه عن الجامع العتيق أو جامع عمرو : وأخبرنى المقرىء الأديب المؤرخ الضابط شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن الحسن الأوحدى ، قال أخبرنى المؤرخ ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن بن الفرات . قال أخبرنى العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن الصائغ الحنفى أن أدرك بجامع عمرو بن العاص بمصر قبل الوباء الكائن فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة بضعا وأربعين حلقة لا قراء العـلم لا تكاد تبرح منه . هذا واعتراف المقريزى فى عقوده بالافادة من الأوحدى ، هو فى رأينا مما يقوى الريبة فى اتهام السخاوى لأن هذا الاعتراف ، ان صح فانما يشهد لصاحبه بالأمانة والصراحة . وشـتان ما بين الاختلاس والانتفـاع .

ومن جهة أخرى فان ما فعل المقريزى قد انتفع به من «مسودات» الأوحدى لا يعدو اليسير التافه بالنسبة لمجموع الخطط . فقد رأينا فى استعراض مصادر المقـريزى ، أن ما كتبـه عن خطط عصره ، وما اقتبسه بطريق الاسناد يستغرق معظم مجهوده فى الخطط ، وأن الباقى المرسل ، مما لا نسبة فيه يشغل فيها قسما صغيرا جدا . ومع ذلك ففى وسعنا أن نتعرف فى هذا القسم أيضا على كثير من المصادر التى نقل عنها المقريزى بطريق التلخيص والاقتباس ، ومعظمها يرجع الى جهود ابن عبد الحكم والكندى وابن زولاق .

والخلاصة أن هذا الاتهام الذى يلح السخاوى فى نسبه لمؤرخ الخطط لا يثير فى نظرنا ريبة من الريب فى عظمة المجهود التاريخى الفذ الذى تقدمه الينا « الخطط » وفى طراقته وروعته .

ان السخاوى كاتب ومحدث ومؤرخ بارع ، ونقادة لاذع ، قوى البيان والحجة . ولكن التحامل ، يشوب هنا نقده . والظواهر والأدلة تنهض كلها لتهدم زعمه .

محمد عبد الله عنان

العمارة والصناعة فى خطط المقريزى

من كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

للأستاذ حسن عبد الوهاب

كان لنشأة المقريزى فى قلب القاهرة الفاطمية أثر كبير فى توجيهه الى محبة التاريخ والآثار ، فقد ولد وشب وترعرع واستفاد وأفاد فى داره بحارة برجوان . ذلك الحى الزاخر بروائع العمارة الاسلامية . والذكريات التاريخية .

وهو فى مقدمة كتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » يشير الى ذلك .

وكان لتوليه وظيفة الحسبة بالقاهرة غير مرة ، أثره فى تنمية توجيهه وصقله عند وضع تلك الموسوعة واجتلاء محاسن الآثار والوقوف على دقائقها ، ولا عجب فان اختصاص المحتسب يدخل فيه الاشراف على المساجد وتعميرها . كما يدخل فيه الاشراف على مختلف الصناعات ومراقبة تنفيذها بالدقة ، ومنع الغش فيها . ومراقبة تنفيذ العمائر ، ومنع الغش فى موادها . كل ذلك بمساعدة المتخصصين الأمناء فى تلك الفنون .

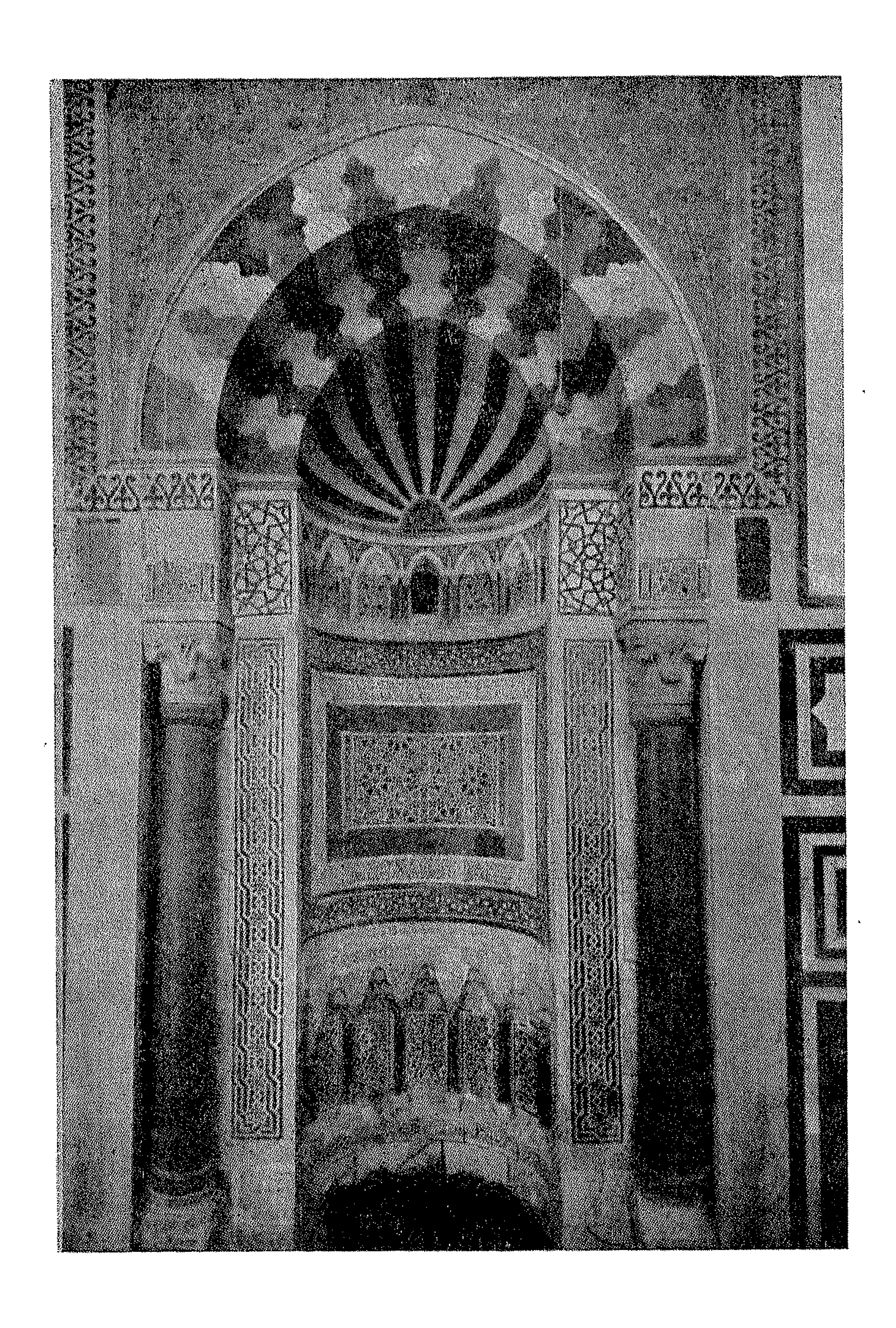
وان ما كتبه عن العمائر الاسلامية والقبطية بمصر والقاهرة بعد مشاهدتها والاطلاع على مراجعها ووثائقها . وقراءة نصوصها ، كان له الفضل الأول على جميع المشتغلين بدراسة العمارة الاسلامية ، فهو

منهلهم العذب الصافى : فقد أحصى فى خططه الجوامع والمساجد مع التعريب بالفرق بينهما . كما أحصى المدارس . ومنى نشأت والفرق بين المدرسة والمسجد فى التفاصيل والتصميم . والخوانق . ومتى نشأت بالقاهرة . وما احتوت عليه من ايوانات وخلاو ، والبيمارستاتات ورسالتها الانسانية والعلمية . والربط . والمشاهد ، والزوايا هذا عدا الاسبلة والكتاتيب والحمامات ، والقناطر والجسور وأحواض شرب الدواب ، ومقاييس النيل ، والأسوار والقلاع . وأخيرا الأديرة والكنائس . وذلك منذ فتح العرب لمصر الى سنة ٨٤٣ هـ أى قبل وفاته بسنتين ١٤٣٩ م .

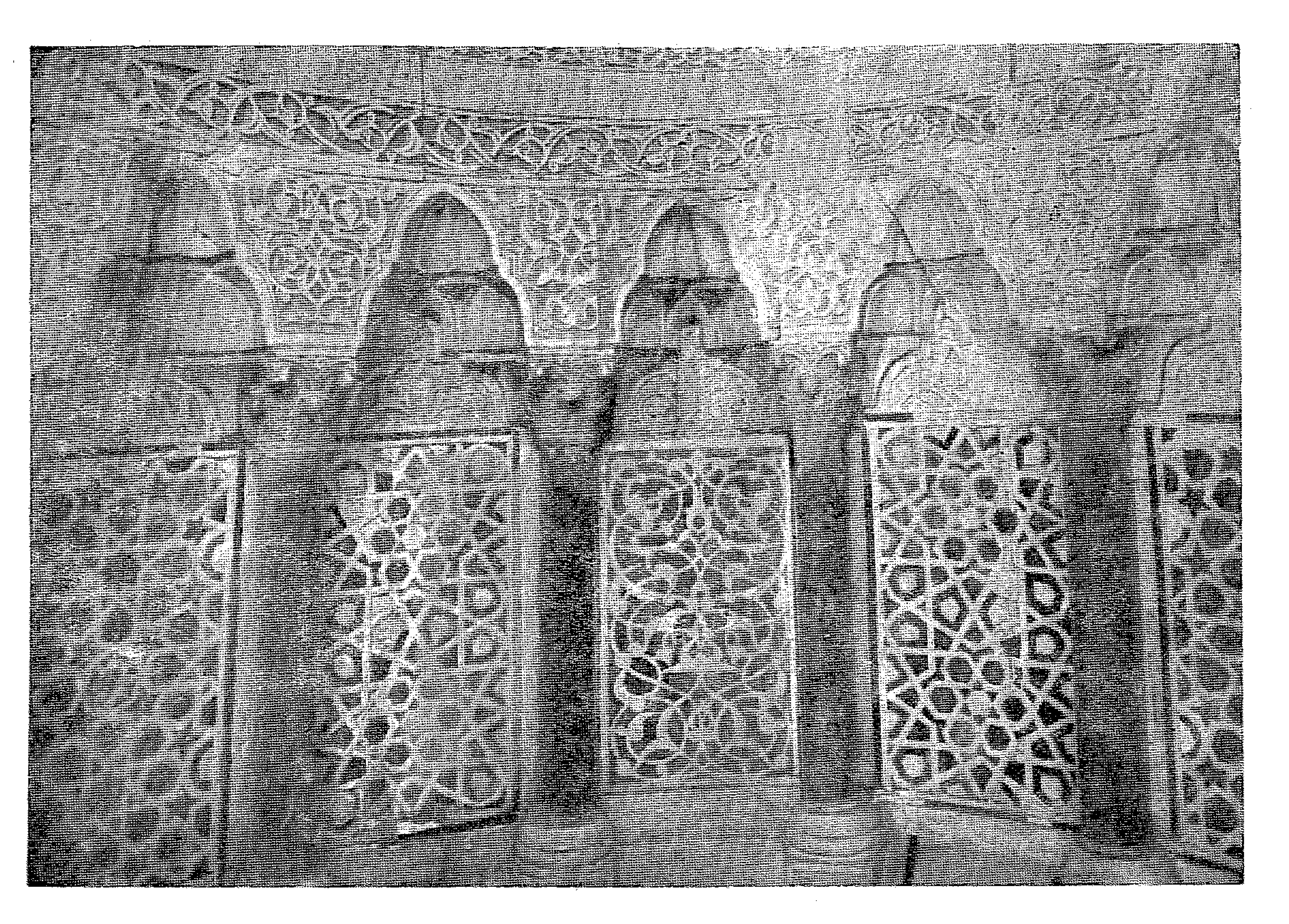
لم يقتصر اهتمامه على المنشآت الخيرية والثقافية فحسب . بل تناول المنشآت المدنية والتجارية . فقد أفاض فى وصف القصور الفاطمية وتفاصيلها المعمارية من بناء بالحجر ، الى نوافير الرخام ، الى وصف القاعات الحافلة بالزخرف ، والمشحونة بالأثاث الفاخر ، كما أفاض فى وصف خزائن القصور وما احتوت عليه من جواهر وأمتعة وخيام وأسلحة وملابس . افاضته فى تدوين حضارة تلك الدولة الزاهرة .. وكذلك تناول ذكر بعض الآثار المصرية مثل [1] بربا اخميم وأثار الفيوم ومنار الاسكندرية وعمود السوارى والمندرة والمسلات وعين شمس . وهيكل الشمس ومدينة شنتريه والواحات الداخلة والخارجة وما وجد منها فى بلدان أعالى الصعيد وعجائب مصر ومنها الهرمان وأبى الهول وعجائب الاسكندرية . ومن طريف ما ذكره أن ذى النون المصرى الاخميمى كان يقرأ النصوص المكتوبة على الآثار المصرية كما عقد فصلا عن الحفريات للبحث عن اللقايا والكنوز .

---

(١) ص ٢٣ ، ٣١ ، ٣٧ ، ٤١٠ ؛ ٢٣٥ ؛ ٢٣٩ جـ ١ المواعظ والاعتبار طبع بولاق وهى الطبعة التى اعتمدت عليها فى هذا البحث .



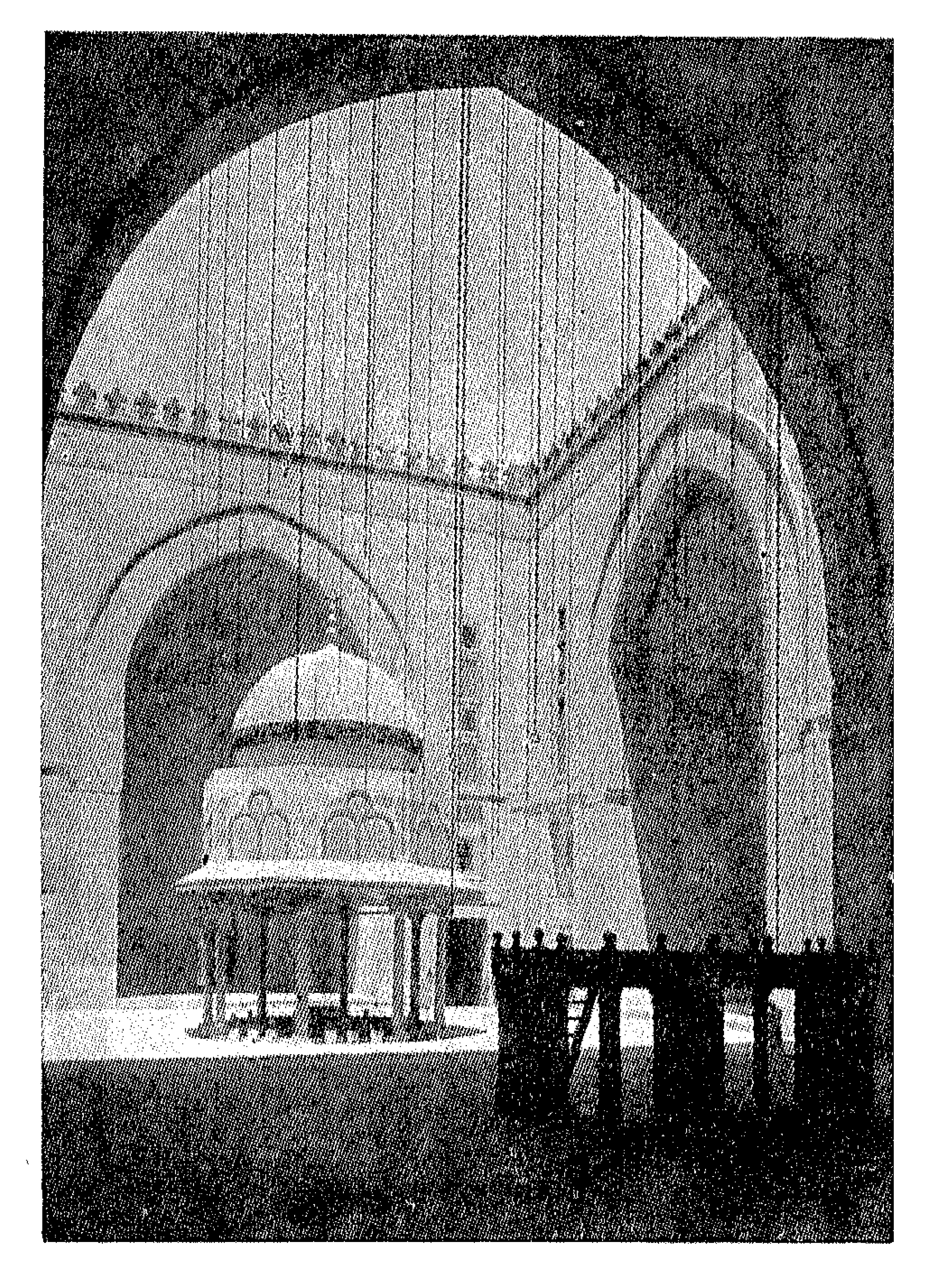
محراب المدرسة الطيبرسية بالجامع الأزهر



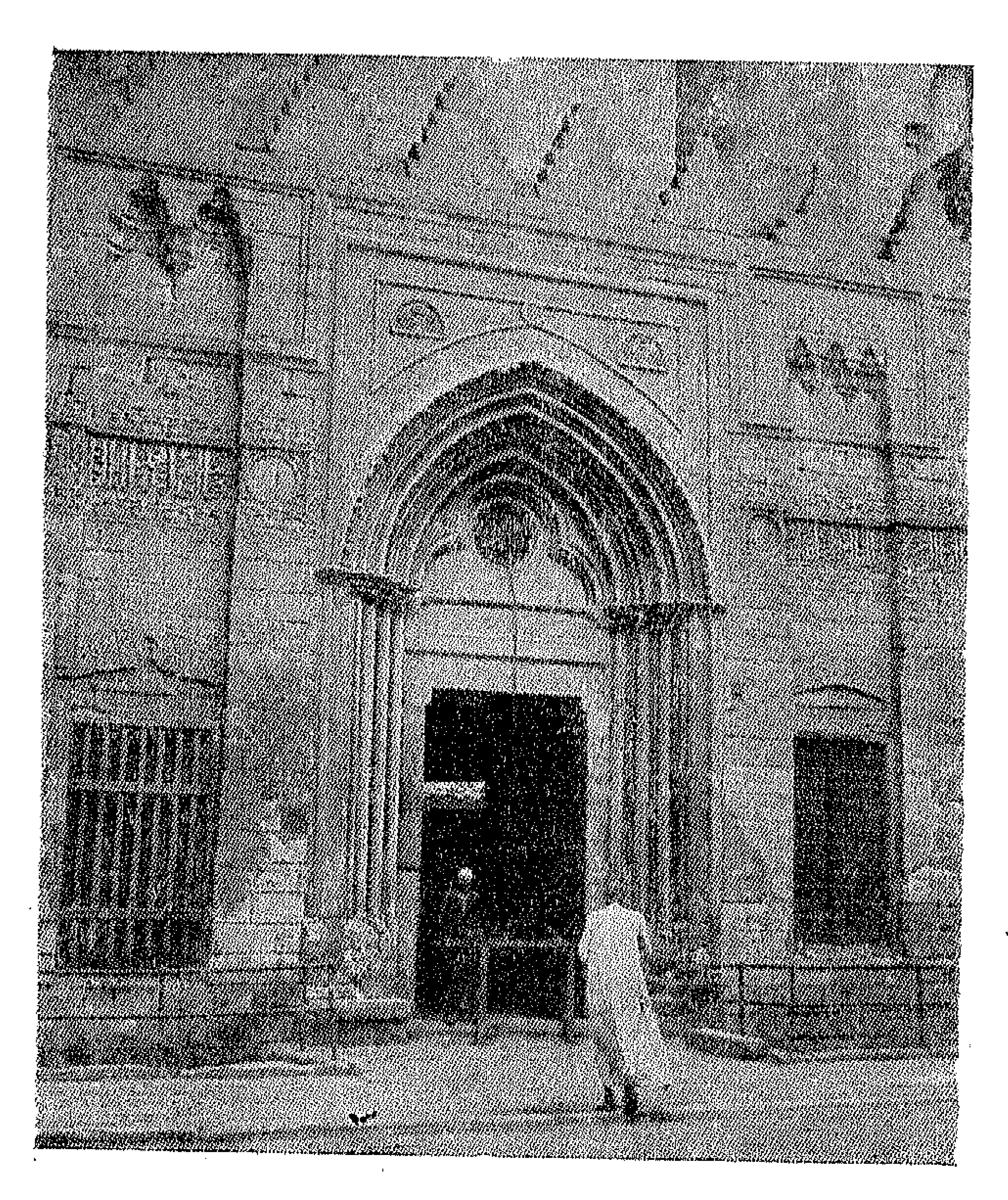
تفاصيل من محراب المدرسة الطيبرسية



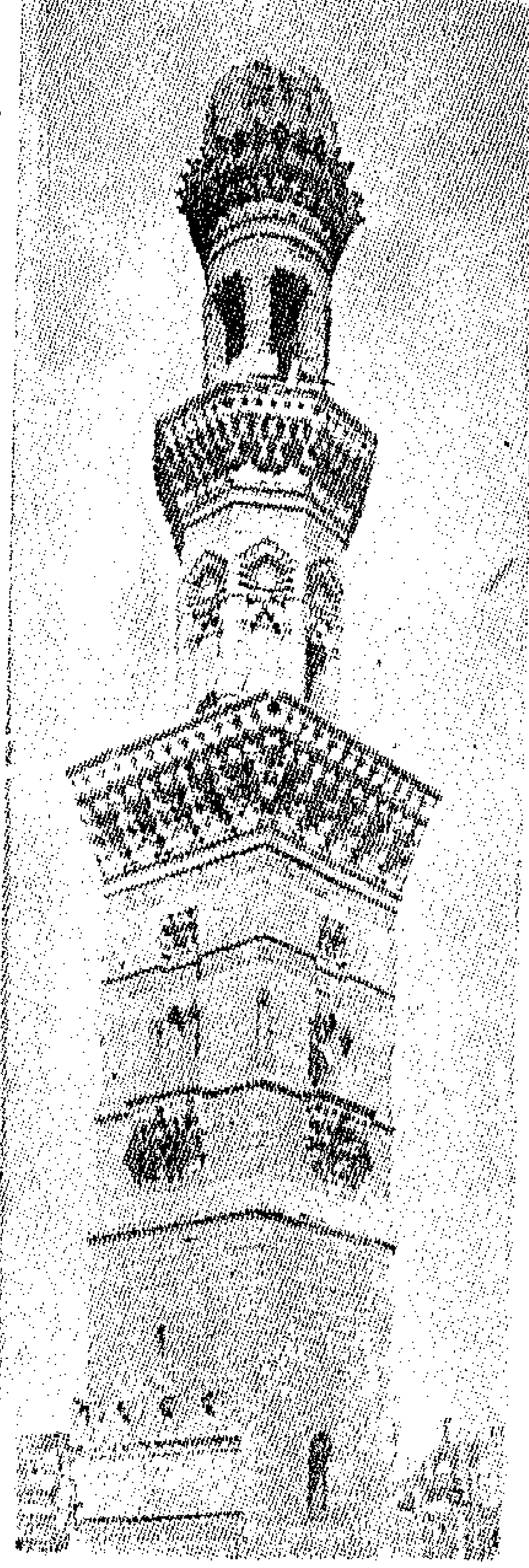
بخارية من وزرة مدرسة الأمير صرغتمش



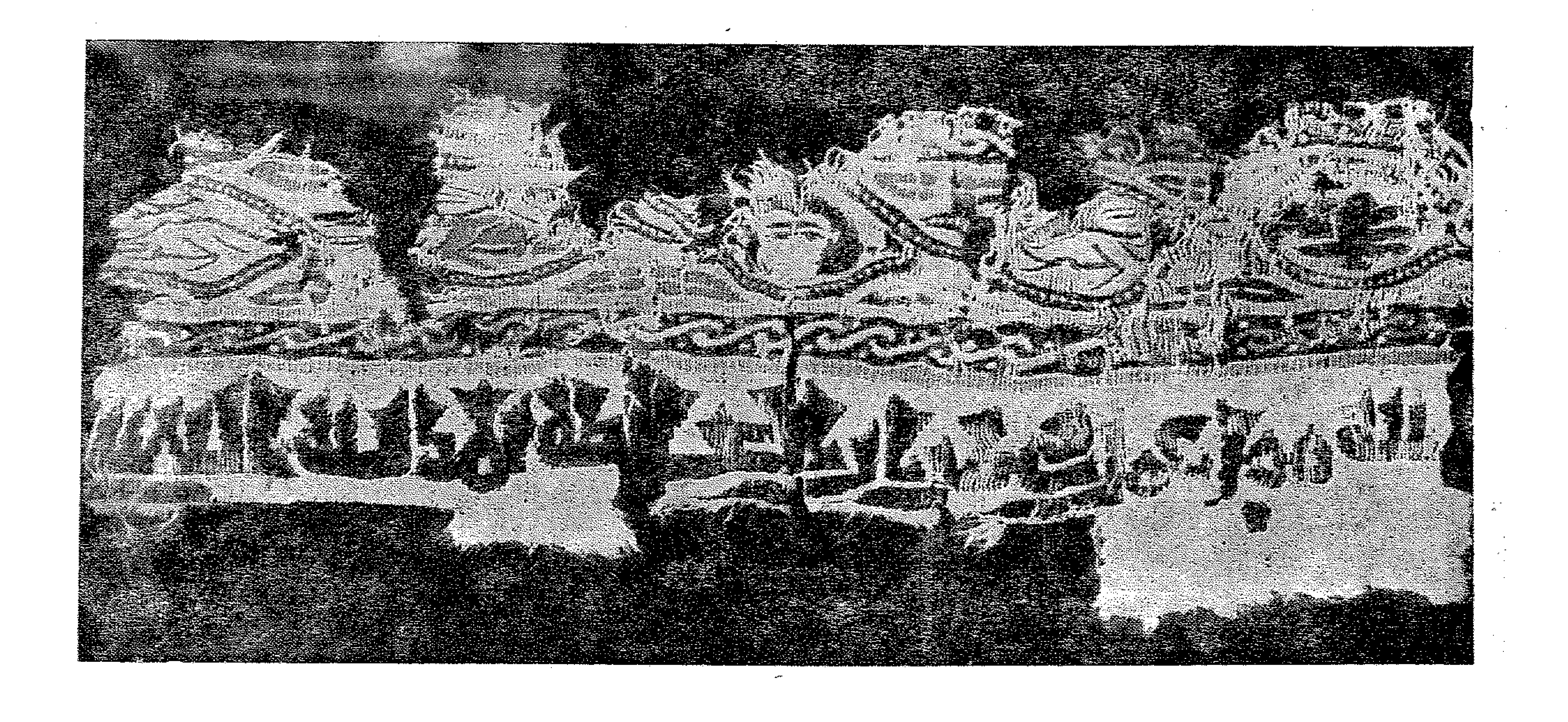
داخل مدرسة السلطان حسن



الباب الرخامى لمدرسة الناصر محمد بن قلاوون
بالنحاسين المنقول من كنيسة بعكا

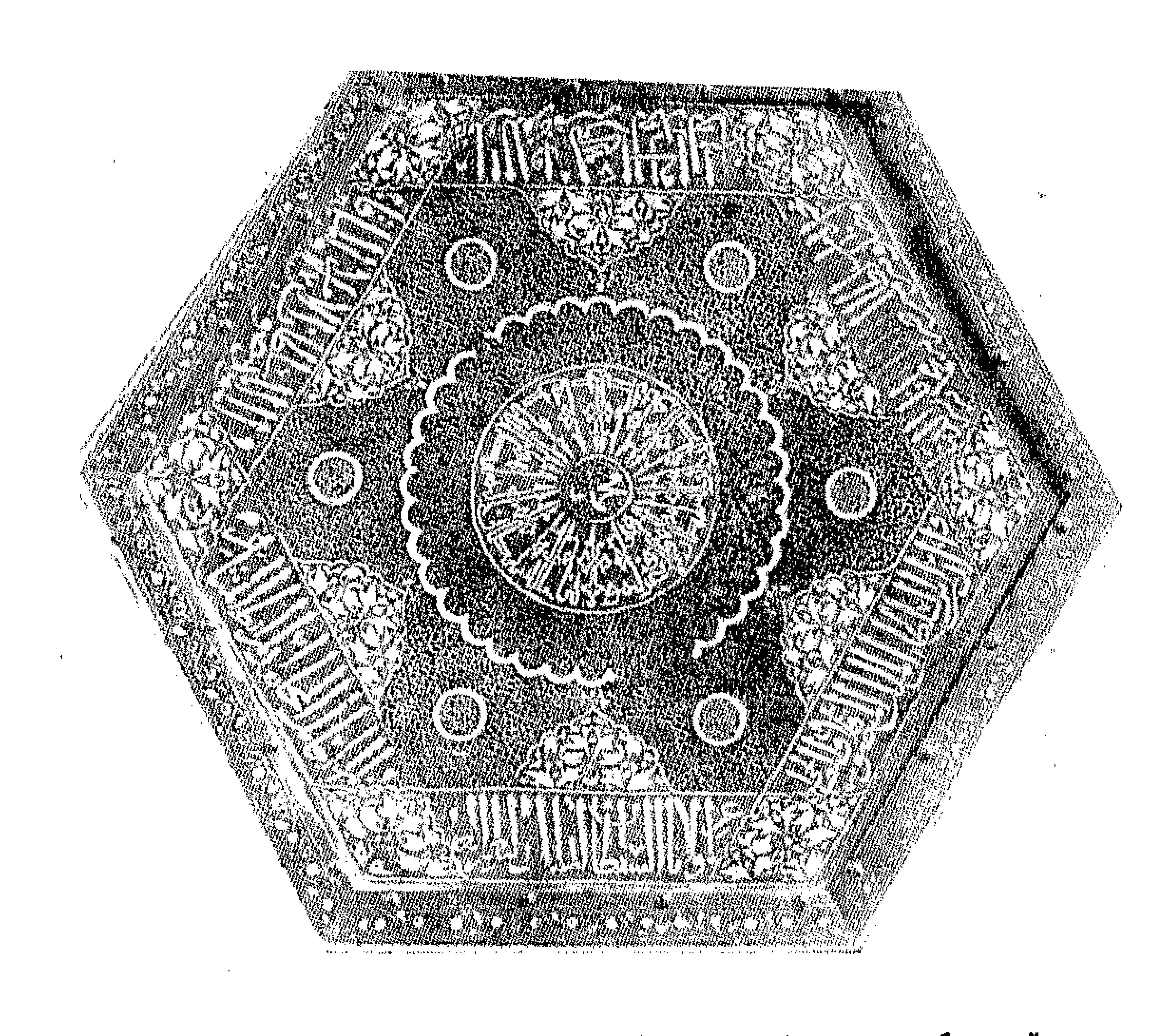


منارة خانقاه الأمير قوصون التى بناها البناء التبريزى

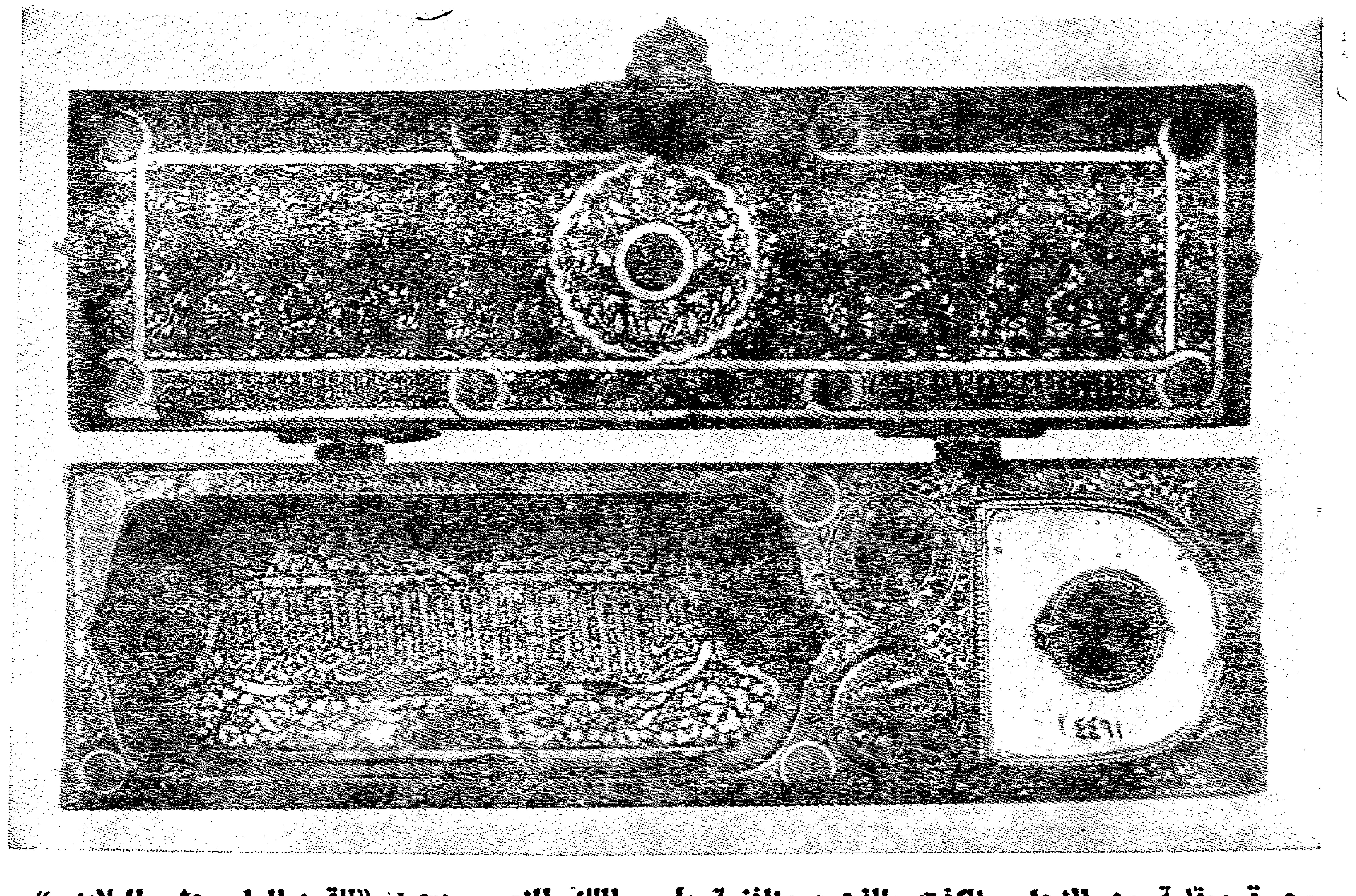


قطعة نسيج من كتان مرسوم بجزئها العلوى رأس انسان داخل جامات مكونة بألوان مختلفة ومكتوب عليها «مما عمل فى طراز التامة بمدينة البهنس»

متحف الفن الاسلامى — القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى



قرص كرسي من النحاس المخرم والمكفت بالفضـــة باسم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سـنة ٧٢٨ هـ سنة ١٣٢٨ م . (متحف الفن الاسلامي)



محبرة ومقلمة من النحاس الكفت بالذهب والفضة باسم الملك المنصور محمد «القرن الرابع عشر الميلادى »
متحف الفن الاسلامى

وكذلك ذكر الدور والقصور . والرباع والخانات والقياسر والفنادق والأسواق وما احتوت عليه من سلع وصناعات .

وهو فيما كتبه اعتمد على مشاهداته . ولذلك نراه يصف العمائر بعين خبيرة مركزا نظره على دقائقها مشيدا بها .

وعلى سبيل المثال : أذكر ما جاء فى وصفه للمدرسة الطيبرسية بالأزهر سنة ٧٠٩ هـ ١٣٠٩ م .. « وتأنق فى رخامها وتذهيب سقوفها .. بحيث لم يقدر أحد على محاكاة ما فيها من صناعة الرخام ».

والمطلع على المحراب الباقى من تلك المدرسة ، يشعر بدقة وصف المقريزى . لأن هذا المحراب رغم جماله ودقة صناعته ، انفرد بتلبيس أجزاء الرخام برسوماتها وألوانها فى ألواح الرخام البيضاء بدل تجميعها. . هذا عدا دقة الحفر فى الرخام ، والفسيفساء المذهبة بتواشيح المحراب .

وفى وصفه لمدرسة الأمير صرغتمش سنة ٧٥٧ هـ ١٣٥٧ م ، يشيد بدقة صناعة الرخام [1] فيها مستشهدا ما أنشده الشاعر شمس الدين ابن الصائغ .

ليتك بان فتحسن ما بنيته لأخراك فى دنياك من حسن بنيان
به يزدهى الترخيم بهجة فلله من زهر ولله من بانى

والحقيقة أن دقة الحفر فى ألواح الرخام بوزرة هذا الجامع وما احتوت عليه من زهور ورسوم لا نظير لها فى أثر آخر .

وأشاد بجامع القلعة الذى أنشأه الناصر محمد بن قلاوون سنة

---

(١) ص ٢٠٤ جـ ٢. المواعظ والاعتبار .

٧٣٥ هـ ١٣٣٥ م وبدقة صناعة الرخـام الفـاخر الملون فى وزارته ومحرابه (١) .

ومن يشاهد بقايا الوزرة وما كانت عليه من دقة وتطعيم بالصدف يحس بدقته وحسن تعبيره .

هذا قليل من كثير من أطنابه فى دقة صناعته الرخام ، ولا عجب فان صناعة الرخام فى دولتى المماليك لا نظير لها .

وتأخذ عينة فى الشواذ المنفردة بها بعض المساجد ، مثل المنابر الرخاميه فيصف جامع الخطيرى .. أنه تأنق فى رخامه ، وعمل له منبرا من رخام غاية فى الحسن ، ويشير أيضا الى المنبر الرخامى بمدرسة السلطان حسن . ويصفه « بأنه لا نظير له » .

وهو على حق ، لأنالشائع فى منابر مصر أن تكون من الخشب ، والمنابر الرخامية نادرة ومعدودة . وبقايا منبر الخطيرى المودعـة فى متحف الفن الاسلامى تؤيد أهميته ومثله منبر السلطان حسن .

ومن أوصافه الدقيقة ، عرفنا استعمال الحديد الزخرفى فى العمارة الاسلامية منذ القرن الرابع عشر الميلادى ، فقد استعمله الناصر محمد ابن قلاوون فى مسجده بالقلعة (٢) وفى باب الايوان بالقلعة ، الذى وصفه « بأنه مسبوكا من (٣) حديد بصناعة بديعة محرمة » ووضع فى صدره سرير الملك المطعم بالعاج والأبنوس .

ومن وصفه لجامع القرافة الذى أنشأته السيدة تغريد أم العزيز بالله سنة ٣٦٦ هـ ٩٧٦ م المعروف بجامع الأولياء ، نقف على تذوقه لفنون العمارة ومصطلحاتها الفنية . فيشير الى ما به الكبير المصفح

(١ ، ٢) ص ٣٥٠ جـ ٢ المواعظ .

(٣) ص ٢٠٦ جـ ٢ المواعظ

بالحدية . والى منارته العالية فوقه . والى أبوابه المطوية . وقناطره المحمولة على العمد ووصفها بأنها مكندجة مزوقة باللازورد والزنجفر. والسقوف ملونة مزوقة . مع ذكره للمفرقصات والزخارف التى روعى فيها الظل والنور . ومن وصفه هذا وقفنا على ما كانت عليه تفاصيل الأزهر قبل ضياعها لأن بنى على مثاله .

وهو بجانب هذا الوصف يتحفنا بأسماء الصناع الذين أبدعوا فى نقوشه ، وهم بنو المعلم شيوخ الكتامى ، والنازوك والبصريين ، كما أتحفنا باسم كتاب نادر فى التصوير : « ضوء النبراس وأنس الجلاس فى أخبار المزوقين (١) من الناس » .

وهو فى تعبيراته يفصل بين الرخام الدقيق والفسيفساء ، فيصف دور الحريم بالقصر الأبلق (٢) بالقلعة « وانها كانت مؤزرة بالرخام والفسيفساء المشجرة المذهبة » . وله مقارنات دقيقة فيصف البـــاب النحاسى لقصر آقوش الرومى بأنه بديع الصنعة يشبه باب اليمارستان المنصورى (٣) .

ومن شدة اعجابه بجامع السلطان حسن وصفه « بأنه لا يعرف فى بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحكيى هذا الجامع ، مع اشارته الى مصطلحاته المعمارية .

وبلغ من عنايته بدولة المماليك البحرية ، احصاؤه لما أنشىء فيها من مساجد ومدارس وخوانق وقصور ما بقى منها وما اندثر ، مع اشاراته الى ديوان (٤) العمائر الذى أنشأه الناصر محمد بن قلاوون . وهو فى وصفه للعمائر يتطرق الى نشأة التفاصيل المعمارية . من منبر

---

(١) ص ٣١٨ جـ ٢. المواعظ الاعتبار .

(٢) ٢١٠ جـ ٢ المواعظ .

(٣) ص ٥ جـ ٢. المواعظ ١٠

(٤) ص ٧١ جـ ٥ المواعظ .

ومقصورة ، ومنارة ، ومحراب . كما يتطرق الى ذكر ما يعثر عليه من أسماء المهندسين والصناع وشادى العمائر . ومشيرا الى الرسومات الهندسية التى كانت تعمل للعمائر قبل تنفيذها . والى عمل المقايسات الابتدائية والختامية . فقد رسم مهندس الجامع الطولونى الذى عثر عنه النصرانى .

مشروع الجامع على رق وعرضه على أحمد بن طولون [١] واتحفنا باسم مهندس آخر « وهو صالح بن نافع [٢] » الذى عهد اليه الاخشيد بوضع مشروع تخطيط بستان المختار وقصر له بجزيرة الروضة ـــ فصوره وقدمه اليه فاستحسنه . ثم سأله عن مبلغ مقايسته فأخبره أن يبلغ ثلاثين ألف دينار . فطلب تخفيض المبلغ واذن بالتنفيذ . وكذلك أخبرنا أن لما اخترقت فوارة الجامع الطولونى أمر العزيز بالله بعمل فوارة أخرى تولى عمارتها ـــ ابن الرومية وابن البنا [٣] . وان بنائى أبواب النصر وزويله والفتوح ثلاثة أخوة قدموا من الرها .

وعرفنا أيضا بكبير المهندسين فى عصر الناصر محمد بن قلاوون (ابن السيوفى) فهو الذى نفذ عمارتى المدرسة الاقبغاوية بالأزهر ، وجامع الماردانى سنة ٧٤٠ هـ [٤] ١٠٣٤ م . ومجهوده فى كليهما يدل على براعته واقتداره . وبالبناء التيريزى الذى بنى منازل مسجد وخانقاه قوصون سنة ٧٣٠ ـــ ٧٣٧ .

وعرفنا منه أيضا ابجيج مهندس الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ابن محمد بن قلاون . الذى أوفده فى سنة ٧٤٥ هـ ١٣٤٥ م الى مدينة حماده مع شاد عمائره . لمعاينة عمارة الملك المؤيد المعروفة بالدهيشة ليبنى له مثلها بالقلعة [٥] .

---

(١) ٢٦٥ جـ ٢ المواعظ .
(٢) ١٨١ جـ ٢ المواعظ .
(٣) ٢٦٠ جـ ٢ المواعظ .
(٤) ٣٨٤ جـ ٢ المواعظ .
(٥) ٢١٢ جـ المواعظ .

وأنبأنا المقريزى عما شاهده فى القرن الخامس عشر الميـــلادى فى فى حوانيت الرسامين فى سويقة أمير الجيوش ، وفى ســـوق البندقانيين لرسم أشكال ، ليطرز بالذهب والحرير (١) .

ويصف الدقائق المعمـــارية ، فيقـــول عن أساسات قصر يلبغـــا اليحياوى ٧٣٨ هـ ١٣٣٨ م انها عملت (٢) « حصيرة واحدة » وهو اضطلاع فنى مستعمل الى الآن .

وأن الملك الظاهر بيبرس البندقدارى لما أراد بناء مسجده بالظاهر ووقع الاختيار على موقعه ، خرج مع مهندسيه لمعاينة المكان ، وعرضوا عليه مقايسته . ثم رسم يبين شكل الجامع (٣) .

والمرجع أن خطط بالجير ، وهى طريقة متبعة الى الآن .

وعندما تكلم على جسر الخليلى على النيل ، شرح طريقة عمـــل الجسور بدون الخوازيق من خشب السنط .

ومن وصفه لحضارة الدولة الفـــاطمية وبذخها ، ســـجل لمصر الاسلامية معرفتها بعمل النماذج المجسمة (ماكيت) . فقد كان فى خزانة الجوهر والطيب والطرائف ، نموذج لبستان . أرضه من فضة، وطينه ند وأشجاره فضة مذهبة مصنوعة ، وأشجاره عنبر ، وبطيخة كافور ، بلغ وزنه ٣٠٦ أرطال (٤)

هذا عدا ما أشار اليه من نماذج الحلوى فى الدولة الفاطمية . ففى سنة ٣٨٠ هـ ٩٩٠ م قدم فى سماط عيد الفطر ، نماذج لقصور السكر

---

(١) ٣٠٢٧ جـ ٢ المواعظ .

(٢) ٧٢ جـ ٢ المواعظ .

(٣) ص ٣٠٠ جـ ٢ المواعظ .

(٤) ٤١٧ جـ ١ المواعظ .

والتماثيل . وعمل بدار الفطرة قصرين من الحلوى زنة كل قصر ١٧ قنطار بشكل متقن مدهون مذهب ، فيه تماثيل أشخاص بارزة (١) .

وعني عناية خاصة بالمراصد الفلكية التى أنشئت بمصر والقاهرة ووصفها وصفا فنيا بمصطلحاتها . وأعطانا سجلا بأسماء مهندسى (٢) المراصد وعلماء الفلك .

ومما قرأه من نصوص تاريخية عرفنا أنه كان قارئا للخط الكوفى. فقد قرأ على قنطرة عبد العزيز بن مروان على الخليج ما نصه .

هذه القنطرة أمر بها عبد العزيز بن مروان الأمير ، اللهم بارك له فى أمره كله ، وثبت سلطانه على ما ترضى وأقر عينه فى نفسه وحشمه أمين . وقام ببنائها سعد أبو عثمان وكتب عبد الرحمن فى صفر سنة تسع وستين (٣) .

وقرأ على لوح رخامى فوق باب السيدة نفيسة .

بسم الله الرحمن الرحيم نصر من الله وفتح قريب لعبد الله ووليه معد أبى تميم الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المكرمين . أمربعمارة هذا الباب السيد الأجل أمير الجيوش سيف الاسلام ناصر الانام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته ، وأعلى كلمته ، وشد عضده بولده الأجل والأفضل سيف الامام جلال الاسلام ، شرف الأنام ناصر الدين خليل أمير المؤمنين ، زاد الله فى علائه ، وامتع المؤمنين بطول بقائه فى شهر ربيع الآخر سنة اثنين وثمانين وأربعمائة (٤) .

(١) ص ٣٨٣ جـ ١ المواعظ .
(٢) ص ١٢٦ جـ ١ المواعظ .
(٣) ص ١٤٦ جـ ٢ المواعظ .
(٤) ص ٤٤٢ جـ ٢ المواعظ .

وقرأ ما هو مكتوب بالخط الكوفى على جامع فتح بدمياط أن عمر بعد (١) سنة خمسمائة من الهجرة . وسجل لصلاح الدين يوسف ابن أيوب انشاء ديوان الأسوار ، لعمارة سور القاهرة من ايراد ما وقفه عليه . وخص القسطاط بانفرادها بصناعة الورق (٢) المنصورى دون القاهرة .

المصطلحات الفنية للعمارة الاسلامية :

كان لاطلاع المقريزى على وثائق المنشآت واشرافه على الصناعات أثره فى استعماله المصطلحات الفنية للعمارة والتى ما زلنا نستعملها . اذكر منها .

ايوان ــ اسكفه ــ بدنه ــ باشورة . باذهنج ــ برج تابوت ــ حوش ــ خوخه ــ دركاه ــ دهليز ــ دورقاعة ــ رفرف ــ رواق ــ دنك رحبة ــ زلاقة ــ ساباط ــ ساقية ــ ساحة ــ سلقون ــ سكرجه سدلا ــ شرفه ــ طراز ــ طاقة ــ عتبة ــ عتب ــ عقد ــ عضائد ــ فسقيه ــ فواره ــ قاعة ــ قفل ــ منارة ــ مصنع ــ وزرة ــ مقصورة ــ مقرنص .

وهو فى حديثه عن المنشآت المعمارية ، يسجل على بعض منشيئيها طمس آثار من سبقهم ونقل أنقاضها وادماجها فى منشآتهم ، معلقا على ذلك « اذا تأملت البقاع وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد .

ثم أشار الى عدة اعتداءات مثل ، هدم الناصر صلاح الدين لسور مدينة (٣) نصنا وشحن أحجاره ليبنى بها سور القاهرة . وما فعله الملك

---

(١) ص ٢٢٤ جـ ١ المواعظ .

(٢) ص ٣٦٧ جـ ١ المواعظ .

(٣) ص ٣٠٤ جـ ١ المواعظ .

الصالح نجم الدين أيوب عند بناء قلعته بالروضة من هـدم المساجد والقصور وأخذ أنقاضها وعمدها (١) .

وقد جازاه الله على ذلك فان القلعة لم تعمر طويلا ونهبها مماليكه ونقلوا منها ما احتاجوا اليه فى منشآتهم .

ويشير الى الباب الرخامى لمدرسة الناصر محمـد بن قلاوون بالنحاسين بأنه منقول من احدى كناسى عكا بعد أن استولى عليها الأشرف خليل وطرد الصليبيين منها . ويصفه باعجاب وصفا فنيا « بأنه من أعجب ما عملته أيدى بنى آدم . وانه من الرخام الأبيض البديع العائق للصناعة وأنه وقواعده وعمده وأعضاده من رخـام كل ذلك فيصل بعضه ببعض (٢) .

هذا عدا ما أشار اليه من نقل مخلفات المساجد المتخربة والسطو عليها بدلا من ترميمها . وسجل على الأمير جمال الدين الاستادار اعتداءاته على الآثار السابقة له وأخذ أنقاضها ، فقد هـدم مدرسة الأشرف شعبان التى كانت تحت القلعة وأخـذ أنقاضها فى بناء مدرسته بالجمالية . وكذلك هدم مدرسة الأشرف خليل التى كانت تجاه القلعة واستعمل أحجارها فى بناء منارة كانت بالأزهر .

ويعلق على ذلك بأن الله كان له بالمرصـاد فسلط عليه السلطان الناصر فرج بن برقوق فعاقبه ومحا اسمه ورنكه من المدرسة الجمالية ووضع اسمه مكانه .

وأحصى الكثير من تلك الاعتداءات ومنها ما فعله الملك المؤيد شيخ من أخذه عمودى المحراب من مسجد قوصون ، وأخذ الباب المصفح بالنحاس والتنور من مدرسة السلطان حسن .

(١) ص ٣٨٢ جـ ٢ المواعظ .
(٢) ص ٤٠١ جـ ٢ المواعظ .

وعلق على فتوى بعض العلماء بعدم جواز الصلاة فى مسجد قلاوون لأنه اغتصب قاعة القطبية وأدخلها فى بناء البيمارستان المنصورى (بقوله) .

« ان كان التحرج من الصلاة لأجل أخذ الدار القطبية من أهلها بغير رضاهم واخراجهم منها بنعسف واستعمال أنقاض القلعة بالروضة. فلعمرى ما تملك بنى أيوب الدار القطبية وبناؤهم قلعة الروضة . واخراجهم أهل القصور من قصورهم التى كانت بالقاهرة ، واخراج سكان الروضة من مساكنهم . الا كأخذ قلاوون للدار القطبية وبنائها بما هدمه من القلعة المذكورة واخراج مؤنسة وعيالها من الدار القطبية . وأنت اذا أمعنت النظر وعرفت ما جرى ، تبين لك ، أن ما القوم الا سارق من سارق ، وغاصب من غاصب ، وان كان التحرج من الصلاة لأجل عسف العمال وتسخير الرجال فشىء آخر — بالله عرفنى فانى غير عارف . من منهم لم يسلك هذا السبيل ؟ غير أن بعضهم أظلم من بعض . (١)

بهذا النقد الصريح اللاذع حمل على الدولة الأيوبية التى قضت على الدولة الفاطمية انتقاما لها .

الصناعة :

كان لانفراد المقريزى عن جميع المؤرخين بتدوين حضارة الدولة الفاطمية وآثارها وشرحه بدقة واطناب لما جوته خزائنهم ، الوقوف على تقدم الصناعات وازدهارها ، وان مصر كانت من أروج الأسواق بمنتجاتها وبما تستورده . فيصف فى خزانة الجوهر وأوانى البللور وعلى بعضها اسم العزيز بالله وصوانى الذهب المشغولة بالمينا .

---

(١) ص ٤١٨ جـ ٢ المواعظ .

وسكاكين الذهب والفضة والدوى المصنوعة من الذهب والفضة وسائر أنواع الأرائك المحلاة بالجواهر والذهب .

هذا عدا الحلى والمرايا ، والصوانى المكفته بالذهب ، والتماثيل والطيور ومنها طاووس مرصع بالجوهر عيناه ياقوت أحمر ، وديك من الذهب له عرف من الياقوت . وغزال مرصع بالدر والجوهر ، ونخلة من ذهب بجميع الطلع والبلح والرطب . وغير هذا كثير .

وقد دخل الذهب فى تحلية الكثير من المقتنيات والأثاث فقد كان فى خزانة السروج خدد كبير من الصاغة وغيرهم لا ينقطعون عن العمل ، حتى أن مهاميز الخيول كانت تصنع من الذهب والفضة ، كما كان فى خزائن السلاح عدد كبير من الصاغة وغيرهم .

وكان فى خزانة البنود ثلاثة آلاف صانع ماهرين فى سائر الصناعات كما كان فى القصور الفاطمية مستخدمات من أرباب الصناعات الدقيقة .

وكان الخليفة الفاطمى المعزلد ين الله يجمع مهرة الصناع ويلحقهم بخدمته وبمصالح الدولة ويفرد لهم مساكن خاصة . كما كان يطلب الى عماله على الأقاليم أن يرسلوا اليه من يتوسمون فيه الصلاحية لمثل هذه الأعمال .

وكان من بينهم عمال أجانب خصص لاقامتهم المناخ خلف القصر الكبير ، وكان به عد كبير من المخازن بها الحديد والخشب والطواحين وأدوات الأساطيل والأسلحة ومنتجاتهم الصناعية (٢) .

وكان من بينهم رئيس الصناعة « الترسانة » الصقلى الذى

---

(١) انظر خزائن القصور الفاطمية ص ٤٠٨ الى ص ٤٢٥ جـ ١ المواعظ .

(٢) ٤٤١ جـ ١ المواعظ .

أشرف على عمل العشاريات اللطاف ذات الألوان الذهبية والفضية ومختلف الألوان .

وقد ظلت الدولة الفاطمية تنتفع بهؤلاء الصناع الى أن أدركت الدولة الأيوبية منهم عددا كبيرا انتفعت به .

وبمناسبة العناية بالأسطول فى مصر الاسلامية ، حدثنا بافاضة عن الأسطول وعن دور الصناعة وعن الاحراج ومواطنها من بلدان مصر ، فقد كانت فى البهنساوية ، وسقط رشين ، والأشمونين ، وأفضنا ، والأسيوطية والاخميمية — والقوصية — أشجار لا تحصى من سنط وغيره ولها حراس يحرسونها كى تصنع منها مراكب الأسطول ويؤخذ منها للعمائر أيضا (١) .

صناعة النسيج :

ولما تناول الأقاليم المصرية اهتم بصناعاتها . وكان للنسيج حظ موفور من عنايته سجل فيه لمصر فضل السبق فى تلك الصناعة كتب من البهنسا « بها تعمل السنور السفور البهنسية وينسج المطرز والثياب المحبرة .

وكتب عن تنيس أن أهلها مياسير وأكثرهم حاكة . وبها تحاك ثياب الشرب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا . وكان يصنع بها للخليفة ثوب يقال له البدنة لا يدخل فيه من الغزل أسداء ولحمه غير أوقتين . وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج الى تفصيل ولا خياطة تبلغ ألف دينار . وليس فى الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه وهو

---

(١) ص ١١١ جـ ١ المواعظ .

(٢) ص ٢٢٧ جـ ١ المواعظ .

ساذج بغير ذهب مائتى دينار غير طراز تنيس ودمياط (1) والشرب مارقه من نسيج الكتان .

وامتازت شطا وريفو ودميره وتونه وما قاربها من تلك الجزر بعمل النسيج الرفيع ما يقارب التنيسى والدمياطى .

وكانت كسوة الكعبة تعمل فى تونة وفى شطا وتنيس ودمياط ، ذكر الفاكهى مؤرخ مكة ما قرأه على كسوات عملت فى تلك البلاد مؤرخه بسنى ١٥٩ ، ١٩٠ ، ١٩٧ هجرية (2) . وما زالت مصر تعتز بهذا الزى ومنفردة بتلك الصناعة الدقيقة .

وأشار أيضا الى دقة نسيج الصوف فى مدينة القيس بجوار البهنسا وخاصة الستور والمضارب (3) .

أما الاسكندرية فقد وصفها بأن الثياب المنسوجة بها لا نظير لها فى أقطار الأرض .

واشتهرت ديبق من قرى دمياط بنسيج الثياب المثقلة والعمائم الشرب الملونة (4) والديبقى المعلم المذهب . وكانت العمائم الشرب المذهبة تعمل بها .

وكان فى خزانة الفرش والأمتعة الفاطمية أنواع الملابس المنسوجة فى ديبق وعليها تطريز بالطيور والفيلة المصورة . وستور حريرية منسوجة بالذهب على اختلاف أنواعها وأطوالها ، وعلى بعضها صور الدول وملوكها مكتوب عليها تاريخ كل ملك ومدة حكمه .

---

(١) ص ١٧٧ جـ ١ المواعظ .
(٢) ص ١٨١ جـ ١ المواعظ .
(٣) ص ١٨٢ جـ ١ المواعظ .
(٤) ص ٢٢٦ جـ ١ المواعظ .

كما كان بها خريطة على مقتطع من الحـرير الأزرق التسترى ، منسوج بالذهب وألوان الحرير أمر بعمله المعز لدين الله سنة ٣٥٣ هـ ٩٦٤ م فيه صور أقاليم الأرض وجبالها وبحارها وأنهارها ومدنها وفيه صور مكة والمدينة . وفى آخرها مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقا الى حرم الله واشهارا لمعالم رسول الله فى سنة ٣٥٣ هـ ٩٦٤ م (١) .

صناعة الزجاج :

حدثنا المقريزى أنه كان بوادى النطرون معمل للزجاج . وعـند كلامه على قربة سمناى من قـرى تنيس ذكر أن قـوما كشفوا فيها سنة ٨٣٧ هـ ١٤٣٣ م عصارات زجاج كثيرة مكتوب على بعضها اسم الامام المعز لدين الله وعلى بعضها اسم الامام العزيز بالله نزار . ومنها ما عليه اسم الامام الحاكم بأمر الله . ومنها ما عليه اسم الامام الظاهر لاعزاز دين الله ومنهـا ما عليه اسـم المستنصر وهو أكثرها « كما أخبرنى بذلك (٢) من شاهده ورآه » .

صناعة البسط : (السجاد)

ونستخلص من أحاديثه العابرة ازدهار صناعة البسط فى مصر فى مختلف عصورها ، وذلك حينما ذكر نهب قصر قوصون أنه وجد فى مخازنه مائة وثمانين زوج بسط ، منها ما هو طـوله من ٤٠ الى ٣٠ ذراعا (عمل البلاد) ، ١٦ زوج عمل الشريف بمصر ثمن كل زوج اثنا عشر ألف درهم نقره منها أربعة أزواج بسط من حرير (٣) .

وفرشت المدرسة الظاهرية برقوق بسجاد من عمل الشريف ، كما فرشت المدرسة الاقبغاوية وغيرها ببسط عملت خصيصا لها بمصر .

---

(١) ص ٤١٧ جـ ١ المواعظ .

(٢) ص ١٨١ جـ ١ المواعظ ويقرر الزميل الدكتور عبد الرحمن فهمى أمين متحف الفن الاسلامى والمتخصص فى علم النبات أن العصارات هى جنح السكة .

(٣) ص ٧٣ جـ ٢ المواعظ .

صناعة الخيام :

ومن وصفه لخزانة الخيام فى القصور الفاطمية ، وقفنا على مدى تقدم هذه الصناعة ، فقد كانت تقام منها قصور وسرادقات وتشكيلات ما بين مضارب ومسطحات وحصون وقساطيط ، صنعت من أنواع الحرير الديبقى والمخمل ، والخسروانى ، والديباج ، وعليها رسوم السباع والفيلة والطاووس وأنواع الطيور بألوانها .

هذا عدا قوائمها المكسوة بالفضة — ومن مشاهير صناعها والمشرفين عليها أبو الحسن على بن الحسن الخيمى وأبو الحسن على ابن أحمد الحلبى المعروف بالأيسر .

وكان يعمل فى صناعة بعض قصور الخيام ما بين ٥٠ — ١٥٠ صانعا (١) .

وقد ظلت تلك الصناعة على ازدهارها الى عصر المماليك واشتهرت منها قصور من الخيام ، والى الآن تنفرد مصر بهذه الصناعة على سائر قطار .

صناعة التكفيت :

ازدهرت صناعة النحاس فى مصر منذ العصر الفاطمى ومتاحفنا زاخرة بروائعه ما بين تنانير ومشكاوات وقناديل ومباخر وكثير منها مكفت بالذهب أو الفضة ، وكان لصناعة التكفيت سوق رائجة بحيث كانت لا تخلو دار بمصر أو القاهرة من عدة قطع من النحاس المكفت ولابد أن يكون فى شوار العروسة دكة نحاس مكفت (٢) .

---

(١) ص ٤١٩ — ٤٢٠ جـ ١ المواعظ .

(٢) ص ١٠٧ جـ المواعظ .

ومن التنانير والقناديل ما اتخذ من الذهب أو الفضـــة أو كفت بأحدهما ، فقد أمر الحاكم بأمر الله بعمل ثريا من الفضة لجامع (١) عمرو بن العاص نقل الينا المقريزى وصفها الفنى .

فقد وصفت بأن شكلها غير متنافر فى الطول والعرض بهـا عشر مناطق فى كل منطقة ١٢٠ بزاقه وفيها سروات بارزة مثل النخيل فى كل واحدة عدة بزاقات . تقرب عدة ذلك من ٣٠٠ ، ومعلق بدائر أسفلها مائة قنديل نجومية .

وكان لوصفه الفنى لتلك الثريا خير عون للمشتغلين بالآثار وفى معرفة تفاصيلها ومسمياتها .

وانتشرت الثريات النحاسية والشمعدانات والكراسى والصناديق فى دولتى المماليك ومنها ومن غيرها الطرف النحاسية المكفتة بالذهب والفضة ومجموعات قيمة بمتحف الفن الاسلامى . منها كرسى نادر مكفت بالذهب والفضة باسم الناصر محمد بن قلاوون .

هذه لمحات عن عناية المقريزى فى خططه بالعمارة والصناعة ما زالت شاهدة بفضله ودقة مشاهداته .

(١) ص ٢٥٠ جـ ٢ المواعظ .

حول دار المقريزى

للأستاذ حسن عبد الوهاب

كان ختام ندوة المقريزى سنة ١٩٦٦ جولة حول موضع داره للأستاذ حسن عبد الوهاب من باب الفتوح الى مدرسة وقبة وبيمارستان المنصور قلاون .

وقد وقع الاختيار على تلك المنطقة من قصبة القاهرة الفاطمية وشارعها الأعظم ، حيث كانت دار المقريزى « فى حارة برجوان » فنشأ فيها وترعرع ، وكانت ملعب أقرانه وموطن خاصته وعامته .

وكانت داره ندوة علم ومقصد الطلاب والعلماء .

وترى المقريزى فى خططه لا يغفل تاريخ هذا الحى مشيدا بذكرياته وما احتواه من آثار وما كان يحيط به من أسواق جمعت طرائف السلع مثل سوق الكتبين ، وصقالى الورق ، وباعة الشموع ما بين موكبية وفانوسية ، وسوق الطيور الملونة والمغردة ، وشارع بين القصرين وقت أن كان يحول فى الليل الى اندية للعلم واللهو ، يقصده سكان القاهرة للاستمتاع بمناهجه .

هذا المحيط المبهج كان له أحسن الأثر فى تكوين المقريزى وصقله. وكانت حارة برجوان متسعة متصلة بسوق أمير الجيوش والخرشتف (الخرنفش) وبلغ من اعتزازه بها ذكره لها فى مقدمة حارات القاهرة بعد حارة بهاء الدين ، فذكرها فى الصحيفة الثانية فى الجزء الثانى من

خططه بأنها منسوبة الى الأستاذ أبو الفتوح برجوان الخادم . وكان خصيا أبيض تربى فى دار الخليفة العزيز بالله وولاه شؤون القصور ، وبلغت حظوته فى دولة الحاكم بأمر الله أنه كان الواسطة بين الناس وبينه الى أن غدر به الحاكم وأوعز بقتله فى ٢٦ ربيع الآخر سنة ٣٩٠ هـ ١٠٠٠ م .

ثم تراه مفاخرا بها قائلا « وأدركت (١) سوق حارة برجوان أعظم أسواق القاهرة ، ما برحنا ونحن شباب نفاخر بحارة برجوان ، سكان جميع حارات القاهرة ، فنقول بحارة برجوان حمامات يعنى حماما الرومى وحمام سويدان ، فانه كان يدخل اليها من داخل الحارة وبها فرنان ، وبها السوق الذى لا يحتاج ساكنها الى غيره .

وبلغ من عنايته بالحارة ذكره لرحابها ومساجدها ودورها وقصورها ذكر خير بسكانها ، مسلسلا بتمليكها على مر العصور ؛ مما يؤكد أنها كانت لسكنى الخاصة ، فيذكر من رحابها رحبة جعفر بأنها تجاه حارة برجوان ، يشرف عليها شباك مسجد يزعم العامة أن فيه قبر جعفر الصادق (٢) وهو غير صحيح .

وبها رحبة الأفيال يتوصل اليها من رأس الحارة ، أدركتها ساحة كبيرة . والمشيخة تسميها رحبة الأفيال . وكذا يوجد فى مكاتيب الدور القديمة (٣) ، ورحبة مازن تجاه دار مازن (٤) التى خربت ، وبها المسجد المعروف بمسجد بنى الكرك .

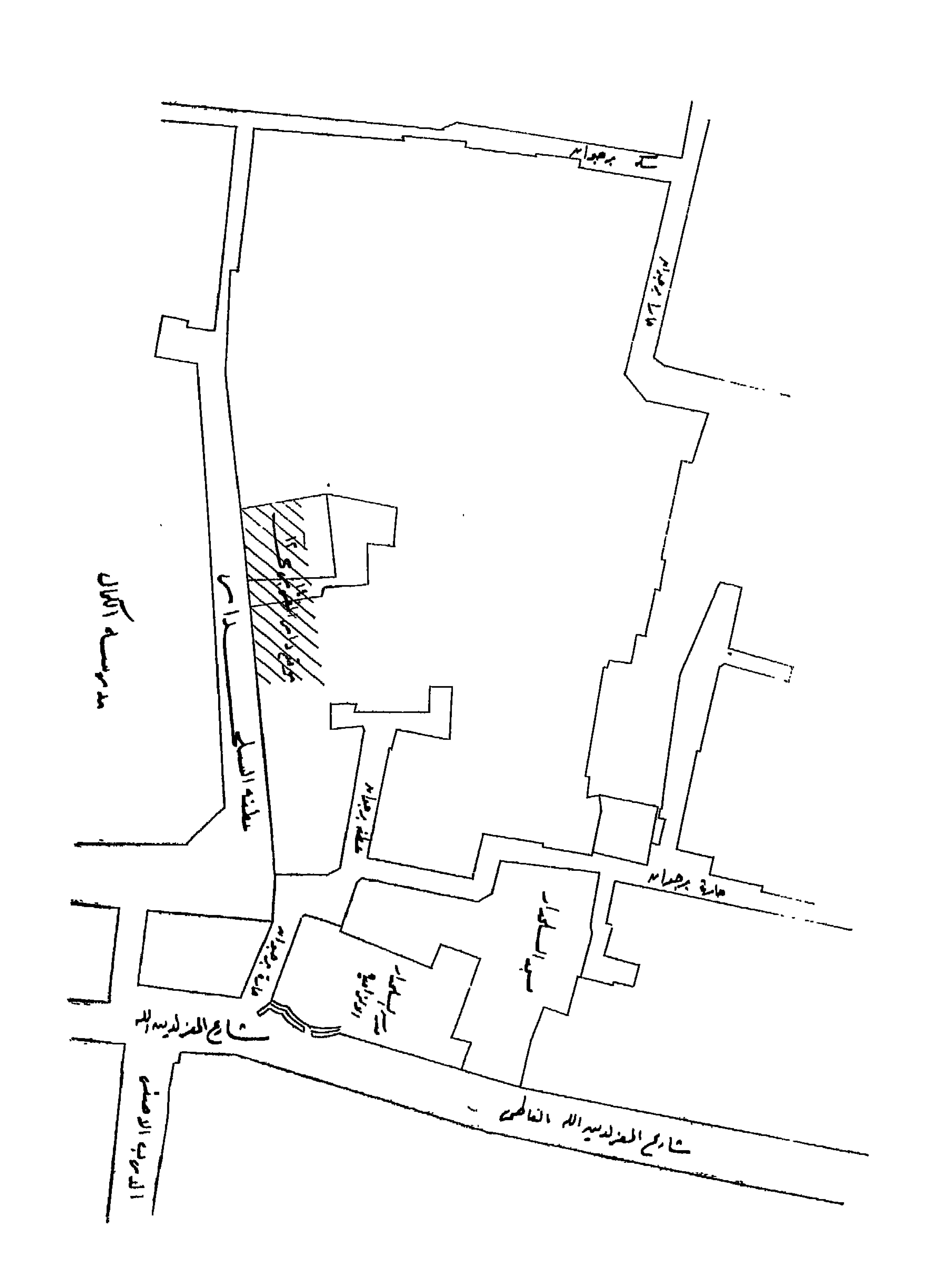
ورحبة أقوش — تجاه قاعة الأمير جمال الدين أقوش الرومى السلحدار (٥) الناصرى .

---

(١) المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٩٥ طبع بولاق .

(٢ — ٥) المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤٩ .

خريطة مساحية رقم ٢٤٤٦
مدينة القاهرة
مقياس ١ : ٥٠٠



ويذكر من دورها دار المظفر التى انشـأها أمير الجيوش بدر الجمالى وصارت فيما بعد دار (١) ضيافة دار عبد العزيز ـــ على يمنة من سلك من باب (٢) الحارة طالبا حمام الرومى . ودار الجمدار على يسرة من سلك (٣) من باب حارة برجوان تحت القبو طالبا حمام الرومى . ودار أقوش (٤) الرومى وغيره من دور كبار الأمراء .

وحدثنا ابن تغرى بردى عن دار المقريزى . بانه سمع كتاب فضل الخيل . تأليف الحافظ شرف الدين أبوك محمد عبد المؤمن الدمياطى بقراءة الحافظ قطب الدين الحيضرى ، فى أربعة مجالس آخرها سلخ شعبان سنة ٨٤٥ هـ بالقاهرة فى منزل المسمع بحارة برجوان على الشيخ الأمام العـلامة مؤرخ الديار المصرية تقى الدين احمـد بن على بن عبد القادر المقريزى (٥) ...

ثم توالت على الحـارة التغيرات بعد عصر المقريزى ، فضاعت معالمها وقسمت الى أزقة ودور صغيرة يتخللها زاوية جولاق وجامع أبوبكر مزهر . وعلى رأسها جامع وسبيل وقصر سليمان أغا السلحدار فشغل ساحة كبيرة . ومن وقتها اطلق على الطرف الشرقى من الحارة اسم عطفة السلحدار .

واذا كان جمهرة المؤرخين والآثار بين يعرفون أن دار المقريزى كانت برجوان ، فانهم لم يعرفوا مكانها لضياع معالمها والتغيرات التى طرأت على الحارة الى أن سنحت الفرصة عفوا . فقد كتبت وزارة الاوقاف فى مايو سنة ١٩٥٧ الى مصلحة الآثار تطلب ابداء الرأى فى استبدال قطعة الأرض رقم ١٢ بعطفة السـلحدار وقف تقى الدين المقريزى الخيرى . وذلك طبقا لما هو متفق عليه بين الآثار والأوقاف

---

(١) ٥٢ جـ ٢ المواعظ .

(٢ ــ ٤) والمواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٥٣ .

(٥) النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢١٩ .

بضرورة معاينة الأماكن المستبدلة لاحتمال أن تكون أثرية أو بهـا مخلفات أثرية .

وبناء على هـذا الاخطار رجعت الى مستندات قسـم الاستبدال بوزارة الأوقاف واطلعت على جـدول محصر أرض المنزل المطلوب استبداله وتأكدت من اسم واقف الأرض (المقريزى) ، وتحققت من أنها جزء من أرض دار المقريزى . وأن مالك المنفعة عليها (أى صاحب المبانى المقامة عليها) مخصص حجة مؤرخة ١٣ ربيع الآخر سنة ١٢٨٣هـ هو عبد الوهاب محمد النازى ، كاتت نقابة الاشراف . وقد أوقف مبانى المنزل على مصالح رواق الجبرت ورواق المغاربة بالجامع الأزهر بحجة ايقاف محررة بحكمة مصر الشرعية بتاريخ ١٠ رجب سنة ١٣١٣ نمرة ١٠٥ مسلسلة ص ٨٤ والدار المذكورة بسيطة وحديثة الانشاء تجاورها دار أخرى رقم ١٤ ، ثم بقايا خربه رقم ١٦ ، لا شك فى أن دار المقريزى كانت تشغل كل هذه المساحة التى تجعلها على رأس حارة برجوان . وفعلا فانه بعد هدم قصر سليمان أغا السلحدار وانشـاء مدرسة ودور حديثة على مساحته أصبحت دار المقريزى فى سـاحة المدرسة وعلى رأس الحارة .

وقد وافقت لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية فى جلستها المنعقدة بتاريخ ١٩٦٦/٥/٨ على ما اقترحته من انشاء مكتبة تحمل اسم المقريزى على رقعة الأرض التى كانت عليها دار المقريزى ، واطلاق اسمه على المدرسة المنشأة حديثا تجاهها المساة « بمدرسة الكمال »

حسن عبد الوهاب

القبائل العربية فى مصر عند المقريزى

للدكتور ابراهيم أحمد رزقانه

تتبع القبائل العربية سواء فى مصر أو فى ليبيا أو فى المغرب العربى من الموضوعات الهامة لأنها تفسر لنا الظاهرة التاريخية العظيمة ألا وهى تحول هذا الأقليم الكبير من أطراف هضبة ايران فى الشرق الى المحيط الأطلسى فى الغرب الى اللغة العربية والثقافة العربية . فلم تكن الفتوحات العربية بدعا بين الفتوحات من حيث اتســاع مداها ؛ فمن قبــل الفتوحات العربية شهدت المنطقة فتوحات الفرس ثم اليونان ثم الرومان الا أن أهلها لم يتحولوا الى الثقافة الفارسية أو اليونانية أو اللاتينية . ولكن ما أن تشهد المنطقة الفتح العربى حتى تتحول الى الثقافة العربية، فليس الأمر اذا أمر فتح عسكرى . كما أن الأمر ليس أمر عقيدة دينية ؛ فمن قبل الاسلام انتشرت المسيحية فى جهات كثيرة ، ومع ذلك لم يؤد انتشــارها الى تحول فرد واحد من لغته الأصلية الى لغة المبشرين بالمسيحية ، بل ان عدد المسلمين غير العرب يفوق فى الوقت الحالى عدد المسلمين العرب بكثير مما يظهر بجلاء أن التحول الى العربية وان كان قد بدأ مع الاسلام الا أن العربية انحصرت داخل اطار معين بينما انطلق الاسلام وحده فأصبح لدينا عالم اسلامى عربى وآخر غير عربى . فأما العالم الأول فهو من صنع القبائل العربية التى انتشرت فيه مع الفتح الاسلامى وبعده .

كبيرة . والمشيخة تسميها رحبة الأفيال ، وكذا يوجد فى مكاتب الدور

وهناك ظاهرتان تسترعيان الانتباه فى التحول الى العربية :

الظاهرة الأولى أن بعض البلاد كمصر كانت ذات لغة مكتوبة ، وكان كتابها المقدس مدونا سواء فى العصر الفرعونى أو فى العصر القبطى ومع ذلك فانها تتحول الى العربية تحولا تاما ، بل تجيد هذا التحول حتى تصبح مصدرا رئيسيا من مصادر العربية .

الظاهرة الثانية أن العربية تمكنت من كل أجزاء الوطن العربى بحيث لم يعد أحدها أصلا للعربية الباقى فروع ، أو أحدها مورد لها والباقى مستورد . فاذا كانت العربية قد خرجت من شبه الجزيرة ، فانها لم تعد المورد الوحيد للعربية بل يشاركها فى هذا كل أجزاء الوطن العربى لا فرق فى هذا بين مشرقه ومغربه (١) ، ولعل هذا هو السبب فى عدم انكماش الاطار العربى منذ الفتح الاسلامى الأول ، ولعل هذا هو السبب فى أن القومية العربية دائما متجددة رغم ما تعرض له الوطن العربى من غزوات كان أخطرها الغزوات الآتية :

١ـ غزوات الصليبيين فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى .

٢ـ غزوات المغول فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى .

٣ ـ غزوات الأوروبيين فى القرن التاسع عشر الميلادى .

وكانت كل هذه الغزوات ذات هدف واحد هو استعمار الوطن العربى والقضاء على عروبته . ولكن كل هذه الغزوات لم تبؤ بالفشل فحسب ، بل كانت فى كل مرة تجدد من القومية العربية روحها وثقافتها وتضامنها السياسى .

---

(١) اذا كان كتاب الانجليز من الانجلترا والفرنسيين من فرنسا والالمان من المانيا والروس من روسيا فان كتاب العرب مثل الطبرى والمسعودى وابن الاثير وابن خلكان وابن خلدون والمقريزى والجاحظ والقلقشندى ليسوا كلهم من شبه الجزيرة .

ويرجع هذا الخط الثابت لسير القومية العربية الى أن تعريب الدم كان أساسا لتعريب اللسان ، وهو ما يعطينا المقريزى بعض المعلومات عنه .

ولقد استحق الشيخ أحمد بن على تقى الدين المقريزى (١) لقب « الطبغرافى العظيم » وأصبح هذا اللقب يغنى عن اسمه وذلك بفضل عنايته بتسجيل الظاهرات الجغرافية للاقليم الذى يكتب عنه طبيعية كانت أو بشرية .

ولقد كتب المقريزى رسالة عنوانها « البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب » أعطانا فيها سجلا عن القبائل العربية التى دخلت مصر مع الفتح العربى وعن أماكن هذه القبائل فى عصره (٢) .

وكان للمقريزى ولع بهذا النوع من الدراسة ؛ فقد كتب كذلك « الخبر عن البشر » ذكر فيه قبائل العرب فى أربعة مجلدات وعمل له مقدمة فى مجلد ، وذلك من أجل ذكر نسب النبى صلى الله عليه وسلم .

وكذلك لا تخلو كتب المقريزى الأخـــرى من اشـــارة الى هذا الموضوع ، ففى « الخطط » وفى « السلوك فى أخبـــار الملوك » وفى « الالمام فى أخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام » وفى « الطرق الغريبة فى أخبار دار حضرموت النجيبة » ، فى هذه الكتب لا يلجأ المقريزى الى طريقة سرد الحوادث أو ذكر تاريخ الشـــعوب بذكر تواريخ الملوك ، وانما جعل أساس روايته الآثار والديار والعـــادات

---

(١) نسبة الى مقريز وهى محلة فى بعلبك . فالمقريزى بعلبكى الاصل ، مصرى المولد والاقامة والوفاة ، ولد بعد سنة ٧٦٠ وتوفى سنة ٨٤٥ هـ ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر من القاهرة .

(٢) كتب المقريزى هذه الرسالة فى سنة ٨٤١ هـ أى قبل وفاته بأربع سنوات . وقد طبعت فى جوتنجن سنة ١٨٤٧ مع ترجمة المانية للمستشرق
وقد تولى نشر هذه الرسالة بمصر ابراهيم رمزى نقلا من النسخة الالمانية السابقة وطبعت سنة ١٩١٦ فى مطبعة المعارف على نفقة حمد الباسل .

والأعمال والصناعة والتجارة وغير ذلك من وجوه نشاط الناس ، فيعطى بذلك صورة كاملة للعصر . ومن أجل هذا الأسلوب فى معـالجة المواضيع أطلق عليـه المستشرقون اسـم « الطبغرافى العظيم » لأنه لا يذكر أخبارا وانما يعطى صورا .

وقد بدأ المقريزى رسالته « البيان والاعراب » بتحديد الهدف من كتابتها فقال : « هذه مقالة وجيزة فى ذكر من بأرض مصر من طوائف العرب قيدتها لنفسى ومن شاء الله تعالى من أبناء جنسى » . ثم يعطينا حقيقة هامة عن الدماء العربية فى مصر فى عصره فيقول : « أعلم ان العرب الذين شهدوا فتح مصر قد أبادهم الدهر ، وجهلت أحوال أكثر أعقابهم ، وقد بقيت من العرب بقايا بأرض مصر » ثم يستطرد المقريزى ويذكر معلوماته عن هذه البقايا ويقول بوجود ست عشرة قبيلة هى ثعلبة ، وجرم ، وسبنس وجذام ، وبنو هلال ، وبلى ، وجهينة، وقريش وكنانة ، والأنصار ، وعوف وفزارة قيس ، ولواته ، ولخم وحرام وبنو سليم . ويمكن أن نستخلص مما ذكره المقريزى النقاط الآتية : ـــ

١ـــ القبائل الثلاث الأولى ، ثعلبة وجرم وسنبس ، كانت تنتمى الى أصل واحد ، فكلها من طيىء ، كما كانت تشترك فى الموطن ، فكانت تسكن اقليم الحدود المصرية الفلسطينية ، ولذلك كانوا أكثر القبائل تأثرا بالحوادث التاريخية ، فثعلبة وجرم كانتا يدا مع الفرنج لما تغلبوا على البـلاد ، كما أن عـددهما تكاثر بمصر على اثر فتح السـلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لبلاد غزة واعادتها من يد الفرنج الى المسلمين . وكذلك سنبس كانت تنزل بفلسطين ، فلما كثر عددهم هناك واشتدت وطيرتهم على الولاة جلب بعضهم الى مصر سـنة ٤٤٢ هـ واقطعوا أجزاء فى البحيرة بغرب الدلتا . ولكنهم مارسوا فى مصر كذلك عادتهم فى التدخل فى السياسة المحلية . فلما تولى السلطنة المعز

عز الدين أيبك التركمانى أول ملوك الترك بديار مصر ، وأنفت عربان مصر من تملكه عليهم لانه مملوك من جملة المماليك البحرية قد مسه الرق ثاروا عليه وأقاموا الشريف حصن الدين ثعلب فى سنة ٦٥١ هـ أميرا عليهم ، ولكن الاتراك قاتلوهم وتغلبوا عليهم وأخرجوهم من ديارهم بالبحيرة ، ففروا الى ناحية سخا سخا غربية حيث استجاروا ببعض القبائل هناك ، منها قبيلة لواته ، ولكن الترك أوقعوا بهم جميعا وقعة شنيعة قتلوا فيها رجالهم وسبوا حريمهم ونهبوا أموالهم ، فذلت سنبس بعد ذلك وقلت صارت متفرقة بالغربية .

٢ — القبيلة الرابعة « جذام » كانت باقليم شرق الدلتا (الحوف الشرقى) وكانت تتجول بين القاهرة وبين عقبة أيلة (بلدة العقبة الحالية على رأس خليج العقبة) . ولكن لم يلبث الكثيرون منهم أن شاركوا فى الحياة المصرية فى الوظائف وفى الزراعة فكان أكثرهم كما يقول المقريزى مشايخ البلاد وخفراءها ولهم مزارع . بل وصل بعضهم الى الوزارة فكان منهم الوزير شاور واليه ينسب بنو شاور كبار منية غمر على عهد المقريزى ومنهم أهل برهمتوش . وكانت مساكنهم الرئسية بين منية غمر وزفيتا (ميت غمر وزفتى) . ولكن كانت لهم عدة اقطاعات منتشرة فى اقليم الشرقية منها هربيط وتل بسطة . وجذام من قدماء عربان مصر قدموا مع عمرو بن العاص وانتشروا فى الحوف الشرقى ، ولكنهم تأثروا بسياسة الحكام اللاحقين ، فالسلطان صلاح الدين وسع لثعلبة فى بلاد جذام ، فكانت فاقوس وما حولها لهلبا سويد وكانت البرمون للحيادرة .

٣ — كان الخلفاء والولاة يتبعون سياسة رسمية لتسيير القبائل الى مصر ، أى أن هجراتهم كان بعضها منظما بمعرفة الحكومة العربية المركزية . وقد حدث هذا لقبيلة سنبس كما ذكرنا ، وحدث مثله لقبيلة بلى ، اذ يقول المقريزى أن عمر بن الخطاب كتب الى عامله بالشام أن

يسير ثلث قضاعة الى مصر ، فنظروا فاذا بلى ثلث قضاعة فسيروا الى مصر فكانت بلى متفرقة بأرض مصر ، ولكن أغلبها سكن الصعيد مع بني هلال وجهينة فكان لبلى الأرض من عقبة قاو الى عيذات وكذلك وأن بأخميم منهم بنو قرة ، وبساقية قلته بنو عمرو وبأصفون واسنا بنو عقبة وبنو جميلة . وأما بلى فينتمى اليهم بنو شاد وهم الأمراء وكذلك منهم بنو حماد ، وبنو فضالة وهم بمنفلوط وبنو حيار وهم بفرشوط . ولم تكن بلى تجاور بنى هلال فقط وانما كانت تجاور جهينة كذلك ، حتى أنهما اضطرتا الى تقسيم الأرض بينهما . فيقول المقريزى أن جهينة من قبائل اليمن وهى أكثر عرب الصعيد ، وكانت مساكنهم فى بلاد قريش ، أى فى الاقليم المصرى الذى تسكنه قبيلة قريش فأخرجتها قريش بمساعدة عساكر الخلفاء الفاطميين ونزلوا فى بلاد اخميم أعلاها وأسفلها وروى ان بلى وبطونها كانت بهذه الديار ، وكانت جهينة بالأشمونين جيرانا بمصر كما هم بالحجاز فوقع بينهم واقع أدى الى دوام الفتنة ، فلما خرج العسكر لانجاد قريش على جهينة خافت بلى فانهزمت فى أعلى الصعيد الى أن أديلت لقريش وملكت دار جهينة ثم حصل بينهم صلح جميعا .

٤ ـــ كانت القبائل الأربع بلى وبنو هلال وجهينة وقريش تشترك فى مناطق السكنى . وقد عرفنا ما كان من أمر بلى وبنى هلال وجهينة. فأما قريش فانهم يتصلون بنسب الرسول عليه الصلاة والسلام . وقريش جماع نسب ليس بأب ولا أم ولا حاضن ولا خاضنة . والتقرش عند العرب التجمع . ومن بطون قريش الجعافرة الذين يتصلون بنسب مع أبى طالب . ومن الجافرة الزيانبة نسبة الى زينب بنت على ابن أبى طالب وكانوا بالصعيد الأعلى ابتداء من آسيوط . وقد أنف أمر الجعافرة كذلك من سلطنة المماليك الأتراك وثار على المعز أيبك

التركماني ، وكاتب الملك الناصر يوسف صاحب دمشق وجمع عربان مصر فخرجت اليه الأتراك وحاربوه وقبضوا عليه وسجنوه الاسكندريةحتى شنقه الظاهر بيبرس . وكانت مساكن الجعافرة من بحرى منفلوط الى سمالوط غربا وشرقا . ومن قريش أيضا العمريون الذين بأرض مصر يدعون كذبا انهم ينتسبوا لعمر وأنه لقى جماعة المقريزى أن الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابه أن العمرين الذين بأرض مصر يدعون كذبا أنهم ينتسبون لعمر وأنه لقى جماعة منهم وعرفهم كذبهم . ومن قريش كذلك بنو الزبير وهم من ولد عبد الله بن الزبير بن العوام . ومن هؤلاء بنو غنى وبلادهم البهنسا وما يليها ، وصار أكثرهم صاحب معايش وأهل زرع وفلاحة وماشية وضرع . ومن قريش أيضا بنو مخزوم وهم يزعمون أنهم من ولد خالد ابن الوليدولكن المقريزى يقول أن علماء الأنساب اتفقوا على انقراض عقب خالد ، ثم يضيف المقريزى أن بنى مخزوم هم أكثر قريش بقية وبلادهم متاخمة لبلاد بنى الزبير . كما يقول المقريزى أن الدولة الفاطمية مرت وهم بأماكنهم لم يردع لهم سرب ولم يكدر لهم شرب .

ومن قريش أيضا بنو سهم بفسطاط مصر . وكانت دور بنى سهم حول جامع عمرو بن العاص من الفسطاط الى أن دثرت .

وكان بصعيد مصر من القرشين أولاد الكنز وكانوا ينزلون اليمامة وقدموا أرض مصر فى خلافة المتوكل على الله أعوام بضع وأربعين ومائتين فى عدد كثير وانتشروا فى النواحى ونزل طائفة منهم بأعالى الصعيد وسكنوا بيوت الشعر فى براريها الجنوبية وأوديتها ، وكانت البجة تشن الغارات على القرى الشرقية فى وقت حتى أخربوها فقامت، ربيعة فى منعهم من ذلك حتى كفوهم ثم تزوجوا منهم واستولوا على معدن الذهب العلاقى فكثرت أموالهم واتسعت أحوالهم وصارت لهم مرافق ببلاد البجة واختطوا قرية تعرف بالناس وحفروا بها آبارا .

وكانت عيذاب لبنى يونس من ربيعة ملكوها عند قدومهم من اليمامة ، فجرى بينهم وبين بنى بشر حروب انهزموا فيها ومضوا من عيذاب والى الحجاز . ويرجع نسب بنى بشر الى مسروق بن معدى كرب ويستمر النسب الى نزار بن معد بن عدنان واليهم ينسب كنز الدولة حامى أسوان الذى نزل بأسوان وانشأ مكانه المعروف بساقية شعبان ، ولم يزل رئيسا على ربيعة حتى مات فقام برياستهم بعده ابنه أبوالمكارم الذى ظفر بأبى ركوة الخارج علىالحاكم بأمر الله وفيض عليه ، فأكرمه الحاكم اكراما عظيما ولقبه كنز الدولة ، وهو أول من لقب بذلك منهم ولم تزل الامارة فيهم وكلهم يعرفون بكنز الدولة حتى كان آخرهم كنز الدولة الذى قتله الملك العادل أبو بكر بن أيوب فى سابع صفر سنة ٥٧٠ هـ عندما حالف على السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وجمع لحربه وقتل أخاه أيا الهيجا السمين ، ودعا الأمير داود بن العاضد، وكان قتله عند مدينة طود بعد حروب شديدة .

٥ ــ كنانة : هم بنو كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . ولم تمكنهم من التعدية الى بلادها عند قدومهم من بادية الحجاز الا بمراسلة بنى ابراهيم بن محمد . وكان مع كنانة جماعة من أخلاط العرب دخلت فى كنفها وبنو الليث منهم ، وهم سكان ساقية قلته وباقيهم فيما يليها .

٦ ــ لم تكن القبائل المهاجرة من القرشيين فحسب ، بل شملت كذلك بعض قبائل الأنصار من المدينة ويقول المقريزى « الأنصار قبيل عظيم من قبائل الأزدوهم الأوس والخزرج الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن الأنصار بأرض مصر بنو محمد وبنو عكرمة وديارهم بحرى منفلوط .

وكان بمصر كذلك بعض قبائل عوف فى بلاد الصعيد وفى الفيوم وفى البحيرة وكانوا يمتدون غربا الى برقة وبلاد المغرب .

وكذلك بمصر فزارة قيس جماعة منهم بالصـعيد وجماعة بضواحى القاهرة فى قليوب وما حولها وبهم عرفت البلد المسماة بخراب فزارة .

٧ ـــ القبائل الحامية : لم تكن الهجرة الى مصر مقصورة على الساميين بل شملت القبائل العربية الحامية كذلك ، ومن هؤلاء قبيلة لواته الذين ينسبون الى لواته بن بربر الذين ينتهى نسبه الى قيس عيلان . وقيل ان أم بربر يهودية ، وقيل بل البربر من ولد قبط بن قفط أى أنهم مصريون ، وقيل انهم أبناء افريقس بن قيس الذى افتتح افريقية فسميت باسمه ، وأن ملكها جرجر قال لهم ما أكثر بربرتكم فسموا بعدها البرابر . ويقال ان لواته من القبط . ومنهم بنو بلار ، وهم فرقتان فرقة بالبهنساوية وفرقة بالجيزية ، فالتى بالبهنساوية بنو محمد وبنو على وبنو نزار ومنهم مغاغة ولهم سمالوط الى الساقية ؛ وأما فرقة الجيزية فهم بنو مجدول وسقارة . ويوجد فى المنوفية بعض قبائل لواته .

وتتبع لواته كذلك هوارة نسبة الى هوار بن المثنى ويقال انه كان من أجناد مصر الذين دخلوا افريقية فقال لغلامه أين نحن ؟ قال بافريقية فقال تهورنا « والتهور الحمق » ، فنزل على قوم من زناته فتزوج منهم وكثر نسله منهم الهواريون . وينسب الهوارة الى يعرب بن قحطان ، كما ينسبون الى جالوت بن مصراييم بن حام بن نوح ، وقيل هوارة من ولد قبط بن حام بن نوح ، أى أن النسب الغالب عليهم أنهم حاميون وليسوا ساميين . ويقال أن لواته تنتمى الى جالوت بن بربر بن قبط بن مصر بن حام بن نوح . وكان جالوت يعرف باسم كاهن بن جالوت وأنه أبو البربر ، وأن من أولاد جالوت هذا تركوت الذى من نسله المثمون سكان قلب الصحراء الكبرى ، وكذلك من أولاد جالوت هذا صنهاجة ومن نسله الملثمون كذلك . ويزعم هوارة أنهم من البربر القدم وأن لواته كانوا منهم وفارقوا ديارهم وصاروا الى

برقة وغيرها . وتزعم هوارة أنها من قوم من أهل اليمن . وفى رأى المقريزى آن هوارة تنسب الى حام بن نوح . ويقول أنها تتناسب بطونها كما تتناسب العرب ، وأصل ديارهم من آخر عمل سرت الى اطرابلسى ثم قدم منهم طوايف إلى أرض مصر ونزلوا بلاد البحيرة وملكوها من قبل السلطان . وأن هوارة التى ببلاد الصعيد انزلهم الظاهر برقوق وذلك أنه أقطع اسماعيل بن مازن منهم ناحية جرجا وكانت خرابا فعمرها وأنهم اكثروا من زراعة النواحى وأقاموا دواليب السكر واعتصاره .

ومن القبائل الحامية كذلك قبيلة لخم وهم من عرب الجنوب ، أى عرب حاميون وكانت لخم بصعيد مصر كذلك وينتهى نسبها الى يعرب بن قحطان .

وفى لخم بطون كثيرة بالبر الشرقى من أرض مصر ومنهم بنو مر وبنو مليح وبنو بنهان وبنو عبس وديارهم من طارف ببا الى منحدر دير الجميزة فى البر الشرقى ، ثم من دير الجميزة الى ترعة صول ثم من مسجد موسى الى اسكر وبلاد أتفيح وحلوان وطره .

وبالبحيرة والغربية طوائف من مزاته وبقليوب طوائف من فزارة . ومنهم بنو نفاية ودارهم أطراف الشرقية ، وبالمنوفية فرقة من لواته ومن مزاته ومن زنارة ومن هوارة . وفى الطينة وهى طينة تنيس ، عرب كانوا بعمل تنيس يقال لهم بنو عذر وينتهى نسبه الى همدان . ويقول المقريزى ان هؤلاء النفر الذين بالطينة قوم لاخلاق لهم ولا ذمام .

حرام : هم بنو حرام احدى بطنى جذام ومنهم أفخاذ وعشائر وقليل فى عرب مصر من يعرفها ومن هم من الأنصار ، ومن قبائلهم بنو صبرة

التى كان اليهم درك بركة الحجاج . ويقال ان حرام القاطنة بمصر من الخزرج . وكان منهم مشايخ بلاد وحولة وقضاة وفقهاء .

وفى الدقهلية والمرتاحية عرب يدعون الحماسة ، وقوم ينسبون الى قريش وهم نفر من بنى عذرة وهم بنو كنانة بن عذرة .

٨ — بنو سليم : هم من قيس ، وينتسبون الى قيس عيلان ، واليه يرجع كل سلمى . وكان نزول سليم وعدة قبائل من قيس فى أرض مصر سنة ١٠٩ هـ ، وأمير مصر اذ ذاك الوليد بن رفاعة . وقصة نزولهم بمصر أن عبيد الله بن الحيجاب بنى سلو عامل هشام بن عبد الملك على خراج مصر وفد على هشام وسأله أن ينقل اليها من قيس أبياتا فأذن له هشام فى الحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر على ان لا ينزلوا بالفسطاط . ففرض لهم ابن الحيجاب وقدم بهم فأنزلهم الحوف الشرقى وفرقهم فيه . وفى رواية أخرى عن الهيثم بن عدى قال حدثنى غير واحد أن عبيد الله بن الحيجاب لما ولاه هشام مصر قال ما أرى لقيس حظا فيها الا لناس من جديلة وهم منهم وعدوان فكتب الى هشام أن أمير المؤمنين أطال الله بقاه قد شرف هذا الحى من قيس ونعشهم ورفع من ذكرهم ، وانى قدمت مصر فلم أر لهم فيها حظا الا أبياتا من فهم ، ومنها كور ليس فيها أحد وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ، ولا يكسر ذلك خراجا وهى بلبيس فان رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هـذا الحى من قيس فليفعل . فكتب اليه هشام أنت ورأيك « فبعث الى البادية فقدم عليـه أبياتا كثيرة من قيس فأنزلهم ببلبيس وأمرهم بالزرع ونظر الى الصدقة من العشور فصرفها لهم ، فاشتروا ابلا فكانوا يحملون الطعام الى القلزم فكان الرجل يصيب فى الشهر العشرة دنانير وأكثر . ثم أمرهم باشتراء الخيول ... الى آخر الرواية وظلوا يتزايدون حتى بلغ عددهم ٥٢٠٠ ما بين صغير وكبير . ويقول المقريزى ان فى هذه القبيلة — قبيلة سليم — بطون وأفخاذ وعشاير .

وقد امتدت مساكنهم الى برقة مما يلى مصر وكانت فى عالية نجـد بالقرب من خيبر ومنها حرة بنى سليم وحرة النار بين وأدى القرى وتيماء ثم تحولوا الى مصر وافريقية ولم يبق لهم عدد ولا بقية ببلادهم وصار لهم بافريقية عدد عظيم . ومن بنى سليم ما كان ينزل بين قابس وبرقة ومنهم من ينزل بين طرابلس وقابس ، ومنهم ماينزل بين قابفى وبلد العناب ومنهم من ينزل ما بين السـدرة من برقة الى حـدود الاسكندرية ومنهم من يسكن منطقة اجدابية . وكذلك يضيف المقريزى أنهم استولوا على اقليم طويل خربت مدنه وصارت ولايته لأشياخهم وتحت أيديهم خلق من البربر .

وفيما بين الاسكندرية والعقبة الكبرى (السلوم) جماعة من بنى سليم ، ثم ب العقبة الكبرى وسوسة جماعة أخرى منهم وكذلك بين سوسة وبين السورة وهما آخر حدود مصر ومسافتها من الاسكندرية نحو شبر بسير القوافل .

ومن هذا التلخيص لما ذكره المقريزى عن الأعـراب بأرض مصر نخرج بالنتائج الآتية :

١ ـــ لم يكن عدد العرب فى مصر قليلا بالنسبة لعدد السكان ، وبالتالى لم تكن نسبة الدماء العربية التى دخلت فى تركيب المصريين قليلة .

٢ ـــ شملت الهجرة العربية الى مصر قبائل منأ جزاء متفرقة من شبه الجزيرة من جنوبها (قحطان) ومن وسطها (قريش) و (الأنصار) .

٣ ـــ لم تكن الهجرة العربية مقصورة على المهاجرين من أهل مكة بل شملت كذلك الأنصار من أهل المدينة .

٤ ـــ كانت بمصر قبل الفتح العربى قبائل عربية جنوبية (لواته) وهم من الحاميين الذين أخذوا اسم البربر فى شمال افريقية ، ولواته

شعبة من هجرة عربية جنوبية عامة دخلت من باب المندب وانتشرت فى كل شمال افريقية وقد عنى المقريزى بتحديد صلتهم بالبربر من ناحية وبالطوارق (الملثمين) من ناحية أخرى .

٥ ـــ ساهم العرب فى الحياة المصرية فكان من بعضهم مشايخ البلد وخنراؤها (جذام) واحترف بعضهم الزراعة (جذام وبعض القرسيين) وأما القبائل التى اشتغلت بالصناعة فأصلها جنوبى (الهوارة) .

٦ ـــ ظلت القبائل العربية متصلة بالأحداث السياسية بعد عصر الولاة العرب (سنبس) وربيعة وغيرها) .

٧ ـــ ان التحول الثقافى العظيم فى شمال افريقية الى العربية له أساس قوى من الدم ، وبالتالى يكون تجدد الدعوة الى القومية العربية له أساسه المتين من قرابة الدم .

٨ ـــ تم تعريب شمال افريقية بجرعتين عربيتين قويتين ، جرعة الفتح فى القرن السابع الميلادى ثم جرعة القرون من الحادى عشر الى الثالث عشر . والذين حرموا من الجرعة الثانية ضعفت عروبتهم .

ابراهيم أحمد رزقانه

أحوال مصر الاقتصادية والاجتماعية كما صورها المقريزي

للدكتور محمد محمود الصياد

بين الجغرافية والتاريخ :

ولد المقريزى بالقاهرة المعزية سنة ٧٦٦ هـ وتوفى بها سنة ٨٤٥هـ (١٣٦٤ — ١٤٤١ م) فهو قد عاش شطرا من حياته (٢٦ سنة) فى أواخر عصر المماليك البحرية ، وعاش معظم حياته (٥١ سنة) فى عهد المماليك البرجية .

* وكان نمط الموسوعات هو النمط الغالب على تأليف العصر . نشهد ذلك فيما كتب النويرى (ت ٧٣٢ هـ — ١٣٣٣ م) وابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٨ هـ — ١٣٤٨ م) والقلقشندى (ت ٨٢١هـ — ١٤١٨ م) وغيرهم من العلماء الأجلاء الذين حفل العصر بمؤلفاتهم الموسوعية الضخمة . ولكن المقريزى بلغ القمة بنمط آخر هو نمط الخطط . ولا تقول أن الرجل هو (أول من ابتكر هذا الأسلوب من أساليب التاريخ ، ولا هو آخر المؤلفين الذين نهجوا هذا النهج ، ولكنه كان بلا شك أعظم كتاب الخطط فى تاريخ مصر الاسلامية .

* وكتابة الخطط فن من فنون التاريخ ، ولكننا نحتفل بها نحن الجغرافيين اذ نجد فيها مصدرا مهما للدراسات الجغرافية الطبوغرافية والاقتصادية والاجتماعية . فالتاريخ ميدانه الزمان ، والجغرافية موضوعها المكان ، والخطط فى دراستها تجمع بين الناحيتين ، بل هى تتخذ المكان أساسا لدراسة الزمان ، ويشير الى ذلك المقريزى فى

مقدمة خططه التى سماها « المواعظ والاعتبار بفكر الخطط والآثار » فيقول : « لما فحصت عن أخبار مصر وجدتها مختلطة متفرقة ، فلم يتهيأ لى اذ جمعتها أن أجعل وصفها مرتبا على السنين لعدم ضبط وقت كل حادثة لا سيما فى الأعصر الخالية ، ولا أن أضعها على أسماء الناس لعلل أخرى تظهر عند تصفح هذا التأليف . فلهذا فرقتها فى ذكر الخطط والآثار ، فاحتوى كل فصل منها على ما يلائمه ويشاكله ، وصار بهذا الاعتبار قد جمع ما تفرق وتبدد من أخبار مصر » .

* والمقريزى من أعلام مؤرخى مصر الاسلامية ، ولكن فهمه للجغرافية فهم قاصر ، والفصول الجغرافية القصار التى افتتح بها خططه لتكون تمهيدا للدراسة الطبوغرافية التاريخية لمصر لا تدل على عقلية جغرافية ممتازة ، وليست سوى ترديد لما قال به القدماء عن هيئة الأفلاك ، وصورة الأرض وموضوع الأقاليم منها ، ومحل مصر وموضعها من الأقاليم السبعة . ولكن المقريزى يعنى المصادر الجغرافية العربية القديمة عناية فائقة ، وقد حصر ر . جست مارجع اليه المقريزى منها فوجدها تربو على الثلاثين مؤلفا مما يدل على أن المقريزى وان لم يكن جغرافيا أصيلا فهو كاتب يتقصى الحقائق فى مصادرها الأصيلة المتيسرة .

* ولا يعيب المقريزى سطحيته الجغرافية فقد استغرق التاريخ كل اهتمامه ، فلم يترك كعادة غالبية العلماء مصنفا فى ميدان آخر غير التاريخ على كثرة ما ألف من كتب ، وقد يجوز لنا أن نستثنى من هذا كتابه « البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب » فكثير من فصوله يمكن أن يدخل فى نطاق الجغرافية . ولعل المجهود الوحيد الذى بذله فى سبيل الجغرافية الخالصة ، وتعديله وتنقيحه للمسودة الأولى للمعجم الجغرافى الذى وضعه أبو عبد الله الحميرى المغربى وسماه « الروض المعطار فى خبر الأقطار » ورتبه على حروف المعجم

فكان آخر تلك السلسلة من المعاجم الجغرافية العربية التى بلغت الأوج فى « معجم البلدان » لياقوت الحموى .

* والمقريزى كاتب ذو منهج يفصله فى مقدمة خططه اذ يتحدث عن الرءوس الثمانية وهى الفرض ، والعنوان والمنفعة ، والمرتبة ، وصحة الكتاب ، ومن أى صناعة هو ، وكم فيه من أجزاء ، وأى أنحاء التعاليم المستعملة فيه ، وليس من غرضنا هنا أن تتحدث عن نقد هذ المنهج ولا عن مدى التزام المقريزى به فى كتابه ، بيد أننا لا يفوتنا أن نشير الى الناحية الأخيرة وهى « أى أنحاء التعاليم المستعملة فيه » بلغة المقريزى ، أو مصادر الدراسة كما نقول فى مصلحنا الحديث ، فهذه المصادر عند المقريزى هى النقل من الكتب المصنفة فى العلوم ، والرواية عن أدرك من مشيخة العلم وجلة الناس ، ثم المشاهدة لما عاين ورأى ، وهو بهذا يستوفى منابع البحث جميعا ، مما يجعل كتاباته مصدرا يمكن الاعتماد عليه .

* ولهذا فكتابات المقريزى التاريخية مصدر له وزنه فى دراسة الجغرافية التاريخية لمصر لا فى عصره فحسب ، بل وفى العصر الاسلامى كله حتى أيام المماليك . وكانت مصر ولا تزال بلادا زراعية ، غالبية سكانها من الفلاحين الذين يحصلون على معاشهم من الأرض واستغلالها ، والنيل هو الذى خلع عليها هذه الصفة البارزة ، فتربتها الخصبة من صنعه ، وهو شريان الحياة فيها بعد أن ضنت عليها هذه السماء بالمطر ، فكيف صور المقريزى هذه الحياة الزراعية وكيف كشف فى عباراته عن خصائصها ومميزاتها ؟

نظم الرى :

كانت مصر التى عاش فيها المقريزى كما كانت فى العهود التى سبقته بلادا تسيطر الزراعة على كل حياتها الاقتصادية . وكان النيل ونظام فيضانه قد ألهم المصريين أسلوبا فريدا للرى هو « رى الحياض »

وفيه يترك ماء النيل فى فصل الفيضان ليغطى أرض الحياض بعمق متر ونصف فى المتوسط ، ولمدة خمسة وأربعين يوما ، حتى اذا ما انخفض منسوب الماء فى النهر صرفت اليه مياه الحياض بعد أن تكون الأرض قد أخذت منها ما يكفيها .

* وكانت أراضى الصعيد فيما عدا الفيوم مقسمة الى أحواض بسدود ترابية تمتد بين جسور النيل وحافة الصحراء ، وكانت الأجزاء الجنوبية من الدلتا يشملها هذا النظام كذلك . وكانت هذه الجسور فيما يروى المقريزى « على قسمين : سلطانية وبلدية ، فالجسور السلطانية هى العامة النفع فى حفظ النيل على البلاد كافة الى حين يستغنى عنه .. ويستخرج برسم عملها مال بأيدى المستخدمين من الديوان ويصرف عليها ، ويفضل من المال بقية تحمل الى بيت المال » فهى اذن من المنافع العامة الموكول أمرها للحكومة المركزية . ولكن حدث فى أيام المقريزى وعلى عهد الناصر فرج بن الظاهر برقوق أن أخذت الدولة تجبى الأموال الكثيرة بدعوى حماية الجسور العامة « ثم لا تصرف منها شيئا البتة بل ترفعها الى السلطان ويتفرق كثير منها بأيدى الأعوان ، ويسخر أهل البلاد فى عمل الجسور فيجىء الخلل » وكان هذا فى نظر المقريزى سببا من أسباب الخراب الذى تعرضت له البلاد .

* أما الجسور البلدية فهى التى « يخص نفعها ناحية دون ناحية ، ويتولى اقامتها المقطعون والفلاحون من أصل مال الناحية » أى أن نفقات صيانة هذه الجسور المحلية كانت أيضا على حساب الخزينة العامة ، اذ كانت تخصم من الخراج الذى يتعين على أهل الناحية دفعه ، وكانت « العادة أن المقطع اذا انفصل وكان قد انفق شيئا من مال اقطاعه فى اقامة جسر لأجل عمارة السنة التى انتقل الاقطاع عنه

فيها ، فان له أن يستعيد من المقطع الثانى نظير ما أنفقه من مال سنته فى عمارة سنة غيره » .

* وكانت الزراعة مقصورة على شريط ضيق من الأرض يمتد على طول النيل والترع التى تخرج منه ومن فروعه « فالنيل اذا انتهت زيادته فتحت منه خلجان وترع يتخرق الماء فيها يمينا وشمالا الى البلاد البعيدة عن مجرى النيل وأكثر الخلجان والترع والجسور والأخوار بالوجه البحرى . وأما الوجه القبلى وهو بلاد الصعيد فان ذلك قليل فيه » . وكانت أهم الترع هى خليج الشموم طناح وخليج سردوس وخليج الاسكندرية وخليج دمياط وبحر أبى المنجا الذى حفره الأفضل ابن بدر الدين الجمالى لرى أراضى البلاد الشرقية والذى عرف باسم أبى المنجا بن شعيا الذى كان على رأس ادارة الزراعة .

* وكانت الزراعة تتوقف على حالة الفيضان ، فلو جاء عاليا عن الحد أغرق الأرض وأتلف الزرع ، ولو جاء منخفضا استحال رى الحياض وأصيبت البلاد بالقحط . ويرى المقريزى : « أن أتم الزيادات كلها ، العامة النفع للبلد كله سبعة عشر ذراعا ، وفى ذلك كفايتها ورى جميع أراضيها واذا زاد عن ذلك وبلغ ثمانية عشر ذراعا وغلقها استبحر من أرض مصر الربع ، وفى ذلك ضرر لبعض الضياع . واذا كانت الزيادة على ثمانية عشر ذراعا كانت العاقبة فى انصرافه حدوث وباء ».

الحياة الزراعية :

وتحت هذا النظام كانت أرض مصر لا تزرع الا بمحصول واحد فى السنة من المحصولات الشتوية ، وتبقى بعد ذلك دون زراعة حتى يأتى الفيضان الجديد . ولكن الدلتا كانت تمتاز عن الصعيد بما يزرع فيها من الغلات الصيفية ، اذ كان من الممكن رفع الماء اللازم لهذه الغلات من فروع النيل والترع الخارجة منه بالسواقى والشواديف ، ذلك لأن مستوى ماء التحاريق فى الدلتا أقرب لمستوى الأرض الزراعية

منه فى الصعيد . وكانت الأراضى التى تشغلها الزراعات الصيفية تحاط بجسور من التراب لتحميها من مياه الفيضان الذى يبدأ ومحصولات الصيف لم تنضج بعد .

* معنى هذا أن مصر كان بها نوعان من الزراعات على عهد المقريزى : الزراعات الشتوية وهى أهم النوعين ، والزراعات الصيفية فى مناطق محدودة من الدلتا . وان معظم الغلات التى تزرع من الغلات الغذائية ، وقليل منها كان يزرع لخدمة الصناعة أو التجارة ولكن بقدر محدود . وكانت الحبوب الغذائية تشمل القمح والشعير ، ويظهر أن الذرة بنوعيها الشامية والرفيعة لم تكن معروفة فلم يذكر عنها المقريزى شيئا . وكذلك الأرز لا يشير اليه المقريزى فى خططه ، ولكنه كان من الغلات التى تزرع فى الفيوم كما يروى المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » . وكما يروى المقريزى نفسه فى « اغاثة الأمة بكشف الغمة » اذ يذكر أن الأرز من الغلات التى ارتفعت أسعارها فى أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى . ولعل الذى دعا المقريزى الى اغفال ذكر الأرز فى خططه أنه كان يزرع فى مساحات محدودة من مناطق معينة ، وهذا هو المنتظر من غلة صيفية كالأرز تتطلب الماء الوفير فى وقت تنخفض فيه مياه النيل .

* وكان من الغلات الغذائية الأخرى الفول والعدس والحمص والبصل والتوم وكان القرط وهو نوع من البرسيم يزرع علفا للدواب . كما كانت هناك غلات تزرع بقصد الحصول على الزيت كالسمسم والكتان والخس ، وغلات صناعية أخرى كالقطن وقصب السكر . ولم تقم صناعة السكر على القصب كما هو الآن وان تكن قد قامت عليه صناعة القند . وكانت هناك غلة لا تزرع الآن وهى النيلة التى كانت تدخل فى أعمال الصباغة .

* وكانت وحدة القياس فى مصر هى الفدان « وهو عبارة عن أربعمائه قصبة حاكمية طولا فى عرض قصبة كما يروى المقريزى أو ٤٠٠ قصبة مربعة كما نقول بلغة اليوم » . والقصبة ستة أذرع وثلثا ذراع بذراع القماش وخمسة أذرع بذراع التجار تقريبا » فاذا حولنا هذه المقاييس الى مصطلحاتنا الحديثة فان ذراع القماش طولها ٥٨ سم ومعنى هذا أن القصبة الزراعية الحكامية طولها ٣٫٨٦ مترا وعلى هذا الأساس تكون مساحة الفدان ٤٩٦٦ مترا مربعا تقريبا بدلا من ٤٢٠٠ م ٢ كما هو شائع اليوم .

* ويتحدث المقريزى عن مركز الغلات المختلفة فى الدورة الزراعية ، وعن كمية التقاوى اللازمة لزراعة الفدان ، وعن محصول الفدان من كل غلة ، وكنا ننتظر منه وهو المغرم بالاحصائيات أن يذكر لنا شيئا عن المساحة المزروعة من كل غلة على وجه التقريب ، ولكنه أمر لم يلتفت اليه المقريزى . كما كنا ننتظر منه أن يحدثنا عن الآلات التى يستخدمها الفلاح فى أعماله الزراعية وهى ناحية لو أهملتم بها لكملت الصورة التى يعطيها عن الحياة الزراعية فى عصره .

الغلات الغذائية :

كان القمح أهم غلات مصر فيما يبدو ، وكان يزرع فى كل الجهات، الا أن صلاحية الأقاليم لزراعته كانت تتفاوت ، ويفهم من كلام المقريزى أن الصعيد كان أكثر صلاحية لزراعته من الدلتا وكان يزرع فى الصعيد على أثر القمح لكثرة الطرح .. وربما زرع على أثر الكتان والشعير .. وأصلح ما زرع القمح أثر الباقى والشراقى .. وموعد زراعته من نصف شهر بابة الى آخر هاتور ، وقد يتأخر الى شهر كيهك .. ويختلف ما يخرج من فدان القمح بحسب الأراضى فيرمى من أردبين الى عشرين أردبا .. وكانت الضريبة المقررة على أراضى القمح هى ثلاثة أرادب للفدان فى الصعيد ثم انقصت الى أردبين ونصف .

« آما أسفل الأرض فيؤخذ عنها عين لا غلة » أى أن ضريبتها كانت ضريبة نقدية .

* ويزرع الشعير فى أثر القمح وغيره . وكان ينتشر من أقصى جنوب البلاد فى أسوان حتى أقصى شمالها . وفى مثل هـذا المدى الواسع تختلف ظروف الانتاج وهذه بدورها تؤثر فى طريقة زراعة الشعير وانتاجه .

* ويزرع الفول « فى الحرث أثر البرايب ويؤكل وهو أخضر فى أشهر كيهك .. ويتحصـل من فدانه ما بين عشرين أردبا الى ما دون ذلك » وتنحدر زراعته فى الصعيد وبقدر ما تنحدر الأرض فى الدلتا يقل محصوله وبذلك يصبح غلة قليلة الشيوع . ويظهر أن المحصول كان أكثر من حاجة البلاد . ولهذا كان يصدر جزء منه الى بلاد العرب عن طريق القصير والى بلاد الشام عن طريق موانى البحر المتوسط .

* وكان العدس من غلات الصعيد دون الدلتا ، وهو لا يزال كذلك الى اليوم ، ولا تتطلب زراعته سوى القليل من الأعمـال ، وتختلف غلة الفدان باختلاف السنين فقد يرتفع الى عشرين أردبا أو ينخفض الى ما دون ذلك وكانت أكثر جهات زراعته فى نواحى المنيا وأسيوط .

* وكان البصل من الغلات المهمة ، ويزرع بطريقة البـذر أو الشتل . أما الذى يزرع بذرا فتكون زراعته فى هاتور الى نصـف كيهك ويحتاج الفدان الى ما يتراوح بين نصف وربع ويبة من البذور. وأما الذى يزرع شتلا فتتأخر زراعته الى نحو العاشر من طوبة ، وهو أوفر غلة اذ يعطى الفدان منه نحو عشرة أرادب .

* وكانت تزرع مساحات واسعة من نبـاتات علف الماشـية والخيول . فكان البرسيم يزرع فى الدلتا ، ويزرع القوط فى الصعيد

عند أخذ ماء النيل فى النقصان . « ولا ينبغى تأخير زراعة الى أوان الريح الجنوبية التى يقال لها المريسية ، وأول ما يزرع فى شهر بابة وربما رزع بعد النوروز » . وفى الصعيد والفيوم كان يزرع نوع ثالث من العلف هو الجلبان « ولا يزرع الا فى أرق الأراضى حرثا من الأرض العالية ، ويزرق تلويقا فى الأرض الخرس » .

النباتات الزيتية :

أما النباتات الزيتية فكان يزرع منها السلجم (اللفت) فى اقليمى أسيوط وجرجا ،ويستخرج من بذرة الزيت ، وكان يحل محله الخس فى أعالى الصعيد . ولكن السمسم والكتان كانا أهم الغلات الزيتية . والأول من الغلات الصيفية اذ يزرع فى برموده ويدرك فى أبيب ومسرى . أما الآخر فغلة شتوية يزرع فى هاتور ويدرك فى برمودة . ولما كان الكتان من الغلات المجهدة للتربة « فهو يحتاج أن يسبخ بتراب سباخ » وكان يزرع لغرضين هما الحصول على أليافه والحصول على بذره الذى يستخرج منه الزيت الحار . وكان محصول الفدان ثلاثين شدة من الألياف الى ما دون ذلك ، ونحو ستة أرادب من البذور . وكانت الضرائب تحصل عنه نقدا لا غلة ، فكانت قطيعة الفدان تتراوح بين خمسة دنانير وثلاثة دنانير .

الغلات الصناعية :

وكان القطن معروفا ولكنه يزرع فى مساحات محدودة ، وكان موعد زراعته يتأخر عن الموعد الذى يزرع فيه حاليا ، فهو كما يقول المقريزى : « يزرع فى برمودة ويدرك فى توت » أى يزرع فى مايو ويجنى فى نوفمبر . وهو الآن يزرع فى فبراير ومارس ويجنى فى أغسطس . ولا شك فى أنه كان يتطلب كثيرا من النفقات فهو يزرع فى وقت يكون ماء النيل ما زال منخفضا ولابد من رفع المياه اللازمة لرى النبات الذى يحتاج لكميات كبيرة من الماء فى المرحلة الأولى من

مراحل نموه . ويدركه الفيضان وهو لا يزال فى الأرض ولذلك كان من الضرورى حماية حقــوله بالجســور . وأغلب الظن أن التكاليف الباهظة هى التى حالت دون التوسع فى زراعته ، ولعلها هى التى دعت زراعته الى ترك شجيراته فى الأرض بضعة سنين .

* وكان القصب كغلة صيفية أوسع من القطن انتشارا ، ويتحدث التريزى عن كيفية اعداد الأرض له ، وغرس عقله ، وطريقة سقيه ، وهى كلها لا تكاد تختلف عما هو متبع فى زراعة القصب الآن فى مناطقه بالصعيد . وهو « يزرع فى برمهات فى أثر الباق » ويتطلب أن تحرث الأرض حرثا جيدا قبل غرسه اذ « تبرش أرضه سبع سكك » والبرش هو الحرث بلغة العصر . ويجوز اذا جاء الفيضان مبكرا ، « فأنجبه ما تكامل له ثلاث غرقات قبل انقضاء شهر بشنس » أى قبل انتهاء الأسبوع الأول من يونيه . وهو يحتاج للرى الصناعى بالقواديس ، ترفع الماء من مجرى النهر أو ترفعه من الآبار . ويبقى فى الأرض سنتين أو ثلاثا . وكان محصول السنة الأولى يسمى « الرأس » وهو الذى نسميه الآن « قصب غرس » ، أما ما تلى ذلك من محصول فهو « الخلفة » ولا تزال هذه التسمية شائعة حتى اليوم . وكانت تقوم عليه صناعة القند . والقند عسل قصب السكر اذا جمد ، وهو ماتعرفه بالسكر الأحمر . وكانت معاصره تنتشر فى جهات زراعته بالصعيد . « وقنود الخلفة أجود غالبا من قنود الرأس » بسبب تركز العصارة فى أعواد القصب مما يرفع نسبة المادة السكرية فيها .

* وكانت النيلة من الغلات الصيفية المعروفة . وأغلب الظن بأنها لم تكن مما يزرع صغار الفلاحين فهى تتطلب كثيرا من النفقات فى زراعتها ثم فى اعدادها بعد ذلك للسوق .

* وبجانب هذه الغلات الرئيسية كانت تزرع غلات أخرى ثانوية

كالقلقاس والباذنجان وغيرهما من الخضر . وكان القلقاس « يزرع عادة مع القصب » أى أنه كان يزرع فى الصعيد ، ومعنى هذا أن توزيعه الأقليمى قد تغير اليوم عما كان عليه فى أيام المقريزى ، اذ أصبحت الدلتا وبخاصة محافظة المنوفية هى أهم جهـات زراعتـه فى الوقت الحاضر .

* كذلك كانت تزرع مصر بعض أنواع الفاكهة كالموز والكروم والتفاح والخوخ والمشمس والنبق والتوت . وكان الموز على صنفين شتوى وصيفى كما كان يزرع من الزهور الياسمين والنرجس والورد.

تصنيف الأرض :

ونفهم من كتابات المقريزى أن الأرض الزراعية فى مصر كانت تصنف أصنافا على أسس مختلفة . ولا يزال كثير من التصنيف الذى ذكره المقريزى شائعا حتى اليوم . فكانت الأرض تصنف على أساس ما كان فيها من زراعة سابقة الى « الباق » وهو أثر القرط والمقاتى . ولما كانت هذه الغلات مما يثبت الأزوت فى التربة فان زراعتها تكسب الأرض خصوبة ولذلك « فهى أعلى الأرض قيمة وأوفاها سعرا » ثم رى الشراقى « وتلى الباق فى جدتها وهى » الأرض التى ظمئت فى الخالية فلما رويت فى الأنية وصارت مستريحة من الزرع ، وزرعت أنجب زرعها ، والواقع أن فترة الشراقى فضلا عن أنها تريح التربة ولا تنهك عناصرها الغذائية ، فانها تؤدى الى تشقق الأرض شقوقا عميقة وهذا يعرض باطن التربة للتهوية والتشميس ، كما تساعد حرارة الشمس على تصاعد الاملاح التى ترسبت فى التربة الى السطح بفعل الجاذبية الشعرية ، فاذا ماروبت غسل الماء الأرض وخلصها من أملاحها.

* و « البرايب » وهى أثر القمح والشعير وسعرها دون سـعر الباق ، فالقمح والشعير وان كانا من النباتات النجيلية يستنفدان من

عناصر التربة القدر الكبير ولا يزال الفلاحون حتى يومنا هذا لا يزرعون القمح والشعير ، المساحة الواحدة عامين متتاليين حفظا لخصوبة التربة. فانه اذا زرعت « على أثر أحدهما فلم تنجب كنجابة الباق . والبرايب صالح لزراعة القرط والقطانى والمقاتى ، فان الأرض تستريح بزراعتها وتصير فى القابل أرض باق « ونستنتج من كلام المقريزى هذا أن* الفلاح المصرى على عهده كان يعرف الدورة الزراعية ، فهو ينظم زراعة غلاته وفقا لدورة خاصة يستهدف من ورائها صيانة التربة ونجابة المحصول .

* ولا تزال هذه الاسماء متداولة حتى اليوم فى ريف مصر ، ولكن هنـــاك مصطلحات أخرى قد اندثرت منها « السقماهية » وهو أثر الكتان فان « زرعت قمحا خسر » والواقع أن الكتان من أكثر الغلات الشتوية انهاكا للتربة ولهذا ينصرف عنه الفلاح ، فلا يزرع الا فى مناطق محدودة ولا بد من استخدام السماد فى زراعته تعويضا للأرض عما تفقده بالزراعة . و « الشتونية » وهو أثر ماروى وبار فى السنة الماضية وهو دون رى الشراقى . و « السلايج » « وهو ماروى وبار، فحرث وتعطل ، وهو مثل رى الشراقى فى زرعه ، فان زرعه يكون ناجبا » . وكان السبب فى بوار النوعين فيما نعتقد أن الأرض لم يكن يصيبها من ماء الفيضان ما يكفيها ، ولم يكن الفلاح يعرف أن الأرض قد حصلت على كفايتها من الماء . فكان يزرع الأرض على أمل أن يكون قد أصابها الماء الكافى ، ثم تثبت الأيام عكس ذلك فتبور الأرض الى عام قابل وهذه هى « الشتونية » . فاذا توفرت له الامكانيات حرثها مرة أو مرتين فى فترة بوارها حتى تتم تهويتها وتشميسها ، فيعوضه وفرة محصولها فى العام التالى عن الخسائر التى لحقت به من بوارها فى العام السابق وهذه هى « السلايح » . وقد أدى تطور نظام الرى فى مصر الحديثة وما تبعه من توفير المياه الى أن أصبحت أراضى الحياض

تحصــل على حاجتها من المــاء ومن هنا اختفى المصطلحان الشتونية والسلايج من قاموس الفلاحين المحدثين .

* وقد تصنف الأرض على أساس ما يصيبها من ماء الفيضان ، فأراضى الحياض ليست كلها على مستوى واحد ، بل تشذ جهات منها عن المستوى العام بالانخفاض أو الارتفاع فاذا كانت الأرض منخفضة غمرها ماء الفيضان ثم لا يجد عنها منصرفا بسبب انخفاضها فيحل أوان الزراعة يغمرها وهذه هى « المستبحر » . وقد لا تصيب الأرض حاجتها من الماء أما لعلو سطحها عن المستوى العامأو لقصور النيل أو سد طريق الماء عنها أو غير ذلك وهذه هى « الشراقى » . وكلا النوعين صالح للزراعة من الناحية الميكانيكية ولكن يعطل استغلاله هذه العوامل الخارجية التى لا صلة لها بخصوبة التربة وطاقتها الانتاجية .

* بيد أن هناك مناطق واســعة لم تكن تصلح من الناحيــة الكيميائية ، اذا يعطل استغلالها زيادة نسبة الاملاح فى التربة وهى على نوعين : « الخرس » وهى « أرض فسدت بما استحكم فيها من موانع قبول الزرع » بنص عبارة المقريزى وهى الأرض الملحية التى تزيد نسبة كلوريد الصوديوم عن القدر المناسب وتظهر بصفة خاصة فى القسم الشمالى من الدلتا ويمكن اصلاحها بالغسيل المستمر حتى تخلص من أملاحها . ثم « السباخ » ويعرفها المقريزى بأنها « أرض غلب عليها الملح حتى ملحت ، ولم ينتفع بها فى زراعة الحبوب .. وربما زرعت ما لم يستحكم السباخ فيها بغير الحبوب » وهذه التربة الغلوية التى يفسدها وجود كربونات الصوديوم بنسبة تزيد على ٠٥ر٪ فاذا قلت النسبة عن ذلك فانها تصلح لنمو بعض أنواع النبات . وأعتقد أن هذا هو ما عناه المقريزى بقوله « مالم يستحكم السباخ فيها » ولا تزال هذه التربة القلوية تعرف باسم السباخ فى كثير من جهات مصر وبخاصة

فى الوجه البحرى وان تكن قد شاعت لها ألسنة الفلاحين أسماء محلية مختلفة منها الشفص والجبص والقرموط وغير ذلك .

* ونظرا لتضاؤل الرقعة الزراعية للاسباب التى رواها المقريزى عن خراب مصر فقد أهملت مساحات واسعة من الأرض القابلة للزراعة فنمت بها النباتات الطبيعية من الحلفاء والقصب الهندى وغيرهما من الاعشاب . وان المصريين يصنفون الأرض على أساس وجود هـذه النباتات أو خلوها منها الى أصناف منها « الوسخ » . وهى « كل أرض استحكم وسخها ولم يقدر الزارعون على ازاحته كله بل حرثوا وزرعوا فيها فجاء زرعها مختلطا بالزحلقاء ونحوها » . ثم « الوسخ الغالب » وهى كل « أرض حصل فيها نبات شغلها عن قبول الزراعة ، ومنعت كثرته من زراعتها فصارت مراعى » وهذه هى أرض البرارى فى شمال الدلتا التى استمر الجزء الأكبر منها على حاله حتى أواخر القرن التاسع عشر ، حينما بدىء فى استصلاح أراضيها .

* من هذا العرض السريع نستطيع أن نخرج ببعض حقائق نميز الاحـوال الزراعية على عهد المقريزى عن الاحوال فى مصر المعاصرة منها :

١ — كان جزء صغير من الأراضى النيلية فى مصر هو المزروع ، اذ كانت الزراعة والرى على سجيتهما ، ولم تكن هناك مشروعات قد أنيمت لضبط مياه النيل . ولم يذكر المقريزى مساحة الأرض التى كانت تزرع على أيامه . ولكنا نستطيع أن نقدر هذه المساحة على أساس ما يذكره عن عدد الفلاحين فهو يقدر أن عدد الفلاحين اللازمين لزراعة أرض مصر هو « ٤٨٠ ألف حراث » ... « فاذا أقيم بها هذا القـدر من العمـال تمت عمارتها وكمل خراجها » ولكن العـدو كان موجودا فى عهده هو ١٢٠ ألف مزارع منهم ٧٠ ألفا فى الصعيد و ٥٠ ألفا فى الدلتا . فاذا قدرنا أن الحراث يستطيع أن يقوم بخدمة خمسة

أفدنة فان معنى هذا أن مساحة الأراضى الزراعية كانت نحو ٢ر٥ مليون فدان ، ولكن الذى كان يزرع منها فى عهد المقريزى لا يزيد على ٦٠٠ ألف فدان بسبب ما عم مصر من الخراب الذى يشير المقريزى الى شىء من أسبابه فى فقرات متناثرة فى كتاب الخطط وكان أهمها أهمال السياسة المائية وعدم العناية بشئون الجسور .

٢ ــ هذه المساحة على ضآلتها لم تكن تزرع كلها طول السنة بل كان يزرع منها فى الخريف أو الصيف ويزرع معظمها فى فصل الشتاء .

٣ ــ وكان الغالب على الزراعة المصرية هو رزاعة الحبوب الغذائية وكانت تكفى الحاجة المحلية اذا جاء الفيضان مناسبا ، وربما تبفى منها فائض ويصدر الى الخارج .

المجتمع المصرى :

كانت هذه هى الأحوال الاقتصادية للمجتمع الزراعى المصرى الذى عاش فيه المقريزى ، وهو مجتمع اقطاعى يوزع فيه السلطان الأرض على الأمراء والاجناد وكانت الاقطاعات أما بلادا يستغلها مقطعها كيفما شاء أو نقودا يحصلها من بعض البلاد ، وكان المصريون أصحاب البلاد الشرعيون فلاحين يعملون لحساب أصحاب الاقطاع ويعيشون عيش الكفاف .

* وكانت أغذيتهم تختلف فى الصعيد عنها فى الوجه البحرى ، فأهل الصعيد يتغذون كثيرا بثمر النخل والحلاوة المعمولة من قصب السكر ، و « أهل أسفل الأرض يتغذون كثيرا بالقلقاس والجلبان » وهم يكثرون من أكل السمك طريا ومالحا . وعند الفلاحين « نوع من الخبز يدعى كعكا يعمل من جريش الحنطة ويجفف وهو أكثر أكلهم السنة كلها » ويشرب الجمهور من ماء النيل وبعضهم يشرب مياه الآبار .

❋ وقد أدى الفقر وتفشى الأوبئة ، وظلم الأمراء والجند ، واغارات العربان من الصحراء الى أن فقد المصريون الأمل فى المستقبل فشاعت فيهم روح التواكل حتى أن المقريزى يذكر أن «من أخلاقهم عدم النظر فى العواقب فلا نجدهم يدخرون عندهم زادا كما هى عادة غيرهم من سكان البلدان » . ولعمرى كيف كان المقريزى ينتظر من المصريين أن يعملوا حسابا للغد فى مجتمع يقول هو عنه « آنه قد تقلص فيه ظل العدل ، وسفرت أوجه الفجور ، وكشر الجبر عن أنيابه وقلت المبالاة ، وذهب الحياء والخشية من الناس حتى فعل من شاء ما شاء » .

❋ كان المجتمع المصرى قد دب فيه الفساد ، وبدأت عوامل الانحلال تنخر فى كيانه مما مهد للغزو العثمانى فى القرن التالى . وكان المقريزى نفسه يتوقع انهيار هذا المجتمع بعد أن آراه وقد تفشى فيه « الفقر ، والفاقه ، وقلة المال ، وخراب الضياع والقرى ، وتداعى الدور للسقوط ، ومشمول الخراب أكثر معمور القاهرة ، واختلاف أهل الدولة وانقضاء عدتهم » وقد صدق حدس المقريزى فلم تمض ٧٦ سنة على وفاته حتى كانت مصر قد وقعت تحت سلطان العثمانيين .

❋ رحم الله الشيخ تقى الدين أحمد بن على المقريزى فقد كان دائما مواطنا مصريا غيورا أحب بلده فحرص على أن يكتب تاريخها وأن يسجل ما عن له عن أحوالها وظروف سكانها فترك لنا ذخيرة نرجع اليها ونستهدى بها لنأخذ من الماضى زادا لمستقبل نبيه ونهضة تقيم كيانها على أسس من الكفاية والعدل وحب الخير والسلام .

المحتوى

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٤١٩٩ / ١٩٧١

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

— ١١٤ —

التأليف [٧٨]

التاريخ [١٢]

القاهرة

١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م

المكتبة العربية

تصدرها

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

وزارة الثقافة

